كتاب الهلال

سلسلة ثقافية شهرية

شكوى الموظف الفصيح

يوسف الشاروني

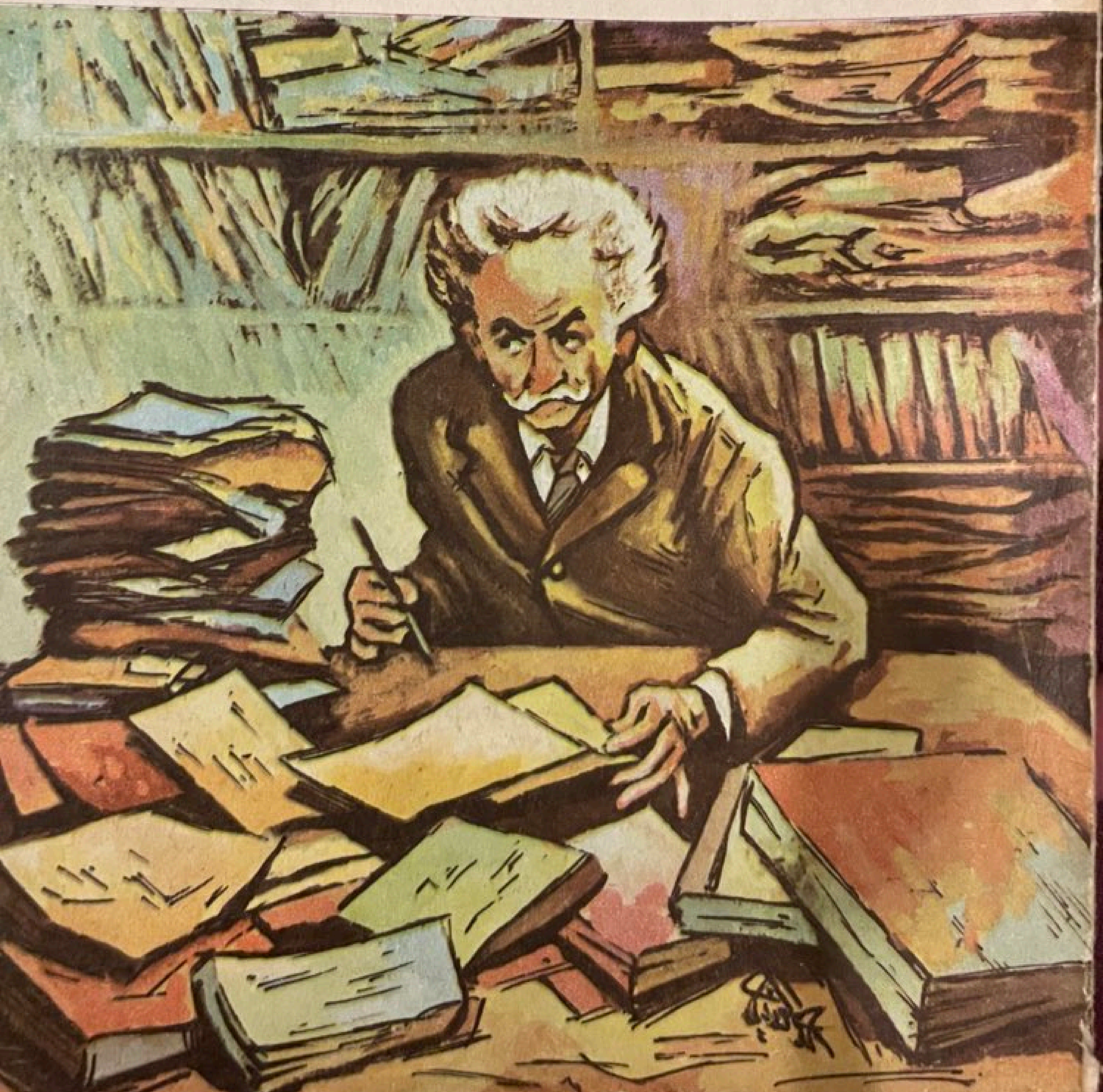

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبري أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايدة عياد

العدد ٣٥١ — ربيع الثاني ١٤٠٠ — مارس ١٩٨٠

No. 351 — March 1980

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي — ١٢ عددا — في جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادي . وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقي وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى . وفى سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادي وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى .

. والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

يوسف الشاروني

شكوى الموظف الفصيح

دار الهلال

شكوى الموظف الفصيح

عندما ذهبت لأعزى فى وفاة قريبى زيد بن عبيد همس فى أذنى أكبر أبنائه ـ وهو صديقى ومن جيلى ـ بأنه يريدنى فى أمر هام فى أى وقت أحدده .

وحين ذهبت اليه بعد أسبوع أطلعنى على مجموعة من الشكاوى كان المرحوم قد تركها فى درج بمكتبه فى منزله . وقال لى انه وأخوته قد اكتشفوا بطريق الصدفة هذه الكومة من الرسائل بعد وفاته ، فلم يكونوا يعلمون عنها شيئا قبل ذلك . وكانوا قد وجدوا الدرج مغلقا بمفتاح سرى لم يستطيعوا العثور عليه حتى اضطروا لاستحضار نجار لفتحه بالقوة ، ولما فوجئوا بكومة الأوراق مضوا يقلبون فيها بلهفة وهم يخشون فى أبيهم جانبا مخفيا عنهم كأن تكون هناك زوجة أخرى فى حياته أو شىء من هذا القبيل ، لكنهم بدلا من ذلك وجدوا هذه المجموعة من الشكاوى التى ظل يكتبها فيما يبدو على مدى سنوات ولا يرسلها الى من يوجهها اليهم بل يحتفظ بها فى هذا الدرج المغلق . وقال لى ابن المرحوم انه وأخوته قرروا اننى باعتبارى كاتبا قد أجد فى هذه الشكاوى ما يهمنى . فهذا أفضل من القائها فى سلة المهملات . فرغم ان المرحوم كان عزيزا عليهم وكل ما تركه بالتالى

عزيزا لديهم ، الا أن كلا منهم يسكن فى شقة لا تكاد تتسع له ولأولاده ؛ فلا مكان لمزيد حتى ولو كان بضعة أوراق للذكرى .

وهكذا عدت الى بيتى حاملا هـذه المجموعة من الأوراق لأتصفحها على مدى ليلتين كاملتين ، فـاذا أنا امام عشرات من الشكاوى كتبها قريبى فى موضوعات مختلفة كل الاختلاف ، فبعضها يمس مسائل عامة جدا وبعضها يمس مسـائل خاصـة بأسرته أو أقربائه أو اصدقائه . كما انها موجهة الى مختلف الجهات من ناظر مدرسة ابتدائية أو مدير مكتب بريد الى رؤساء وزارات ورؤساء دول عربية وأجنبية بل الى الله سبحانه وتعالى .

والحق يقال ان الخطـابات لم تكن جميعـا فى باب الشكوى ، فقد عثرت على ثلاث رسائل بالتحديد كلهـا ثناء وتقدير لعمل أنجز أو اشـادة بدقة ونزاهة كانت اعجاب زيد بن عبيد . ومع ذلك فيمكن القول بأن هـذه الرسائل الثلاث كانت وجها آخر للشكاوى ، لأن مابها ليس الا اشادة بانجـاز كان يجب أن يكون أمرا عاديا لا يثير دهشة ولا اعجابا ، لكن التنويه به دلالة على ندرته بحيث يستحق الالتفات والتشجيع .

وأنا وان كنت لا أعرف على وجه التحديد ما الذى دعا زيد بن عبيد الى أن يحجم عن ارسال كل هـذه الشكاوى التى لا شك انه سهر وتعب فى تدبيجها ــ فقد عثرت على مسودات لبعضها ــ الا أننى أعتقد انه اذا كان السبب هو تهيب ارسال بعضها لا سيما تلك الموجهة الى أصحاب السلطات العليا ، فربما كان السبب بالنسبة لأكثريتها هو اعتقاده بأن ارسالها أو عدم ارسالها يتساويان ، حيث قرأ ولابد فى الصحف آلاف الشكاوى

المماثلة التى لم تلق أى استجابة والتى بدت له ــ كما عبر في احدى رسائله ــ انها للتنفيس لا للتنفيذ . بل لعله رأى كيف أن بعض هذه الشكاوى تنقلب على رأس مرسلها فتتعطل تماما مصالحه ــ كما حدث فى حالة زوجة ابنه المدرسة بوزارة التعليم ــ أو تعطل تنفيذ اقتراحاته عقابا له على شكواه بعد أن كان لا يثيره الا سوء التنفيذأوبطئه.

ملاحظة أخيرة أحب أن أذكرها هى ان زيد بن عبيد لم يكن موظفا عاديا ، فقد كانت له هواية أنفق عليها معظم دخله المحــــدود ، هى هواية القراءة . ولا أزال أذكر فى طفــــولتى كيف كنـــــا نتســـلل ــ نحن أصدقاء ابنه ــ الى هذا المحراب المنعزل فى بيته المكدس بالكتب فى رفوف من الأرض حتى تكاد تمس السقف ، وذلك عندما لا يكون فى المنزل . ونختلس النظر الى هذه الأرفف مبهورين ، وعندما كنا نتسامر او نلعب فى الشارع الذى تطل عليه مساكننا ، ونرى الضوء يسقط علينا من نافذة فى هذه الغرفة ، ندرك أن زيد بن عبيد يمارس هوايته المفضلة ، ولا شك أن هذه الذكريات التى ترسبت فى أعماقى منذ طفولتى المبكرة من أكبر العوامل التى وجهتنى فيما بعد الى عالم القراءة والكتابة .

وعندما أعددت للنشر هذه الشكاوى لم يكن لى اى دور الا دور محقق النسخ الخطية الذى قــد يصعب عليــه قراءة كلمة هنا أو كلمة هناك فيجتهد فى استنتاجها من سياق النص ، كما أننى فضلت حذف الأسماء الحقيقية واكتفيت بالاشارة اليها بالحروف الهجائية .

والشكاوى التالية نماذج تقدم صورة ــ ارجو أن تكون متكاملة ــ من مجموع الرسائل،فبعضها فصيح الأسلوب بينما بعضها الآخر عادي الأسلوب بل ربما كان اقل من العادى .

وبعـد ، فـانى أرجـو أن أكون قد وقفت ، والله المستعان .

سيدي محافظ القاهرة

كان يا ماكان ، فى سالف العصر والأوان ، فى مدينة تدعى القاهرة عاصمة مصر الطاهرة ، دورات مياه عمومية، فى الميادين والشوارع الرئيسية . حقا لم تكن بالوفرة التى عليها عواصم مثل لندن وباريس ، ولا فى نظافتها ورائحتها العطرة أحيانا ، فنحن ناس على قد الحال . لكن عددها كان يتناسب وعينا المثانى . غير ان السـادة المشرفين على تنظيم ميادين القاهرة وتجميل شوارعها ـ عفوا أقصد العكس ـ يبدو انهم لم يفهموا الحكمة من وجود هذه المبـانى ، وبدلا من أن يدركوا انها لحماية القاهرة من القذارة ، ظنوا ـ حفظهم الله ـ ان وجودها سبة فى جبين عاصمتنا ، أو ربمـا أرادوا أن يخففوا الضغط على شبكة مجاريها المتهالكة عساهم يحلون بذلك مشكلة طفحها ، أو لعلهم كانوا يفكرون بعقليتنا الريفية التى لا ترى حرجا فى قضاء الحاجة على الجسر أو وسط المزارع تحت شعار « كله منه واليه » . فأصدروا أوامرهم بازالتها من الوجود وتسويتها بالأرض ، ونسوا أن يصدروا أوامرهم بأن تزال من الناس مثاناتهم . فماذا يفعل عباد الله المساكين حين تمتلىء هـذه المثانات الى حـد الانفجار بل وما خلف المثانات أحيانا . لم يكن أمامهم الا أن يجعلوا من القاهرة كلها مرحاضا عاما : كل حائط أو ركن فيهـا مستباح ، لا فـرق فى ذلك بين انسـان أو حيوان ، آه يا سيدى المحافظ ، لعل هؤلاء المسئولين

قد خلقهم الله تعالى من طينة غير طينتنا فسواهم بلا مثانات يعانون منها مثلما نعانى .

سيدى المحافظ رحمة بما تبقى من القاهرة وساكنيها الغلابة أمثالى الذين مثاناتهم ــ مثل خلقهم ــ ضيقة ، وننكسف فى اللجوء الى الخرابات أو من أن نكون كالكلاب فنحول جدران المنازل وجذوع الأشجار ــ ان وجدت ــ الى دورات مياه عامة .

وكلما امتلأت مثانتى الى حد الانفجار وأنا فى شوارع القاهرة لا أجد دورة مياه ، ارتد الى طفولتى حين كانت تمتلىء مثانات بعض زملائى وترفض المدرسة القاسية أن تأذن لهم بالخروج من الفصل لافراغها ، فتصبح القاهرة امامى فصلا هائلا يتجول فيها شيخ محروم من افراغ مثانته . هل يرضيك يا سيدى المحافظ أن تذكرنى بتلك الأبلة المتجهمة وأن يحدث لى فى هذا السن الوقور ما كان يحدث لنا أثناء طفولتنا وقاك الله شر الفضائح ، ووهبك خير الناصحين وأفضل النصائح . ولعلك لا تعلم ياسيدى المحافظ أن لدينا ــ نحن رابطة ضيقى وضيقات المثانة ــ خرائط موضح عليها دورات المياه العمومية فى مدن العالم الريسية ، وان مدننا المصرية أفقر مدن العالم فى هذه المعــالم الحضارية ، بحيث ينحنى عندها الخط البيانى انحناء شديدا فى رسومنا التوضيحية . واذا كان رجالنا يرغمون على التصرف بطريقة ما مهما بدت مستنكرة ، فما عسى أن تفعل سيداتنا يا سيدى المحافظ ؟ .

ولا أزال اذكر حدثا لا انساه حين كنت فى الاسكندرية منذ عشر سنوات ، واضطرتنى الضرورة الى دخول احدى دورات المياه العمومية ، ففوجئت بنظافتها وبريقها غير المألوفين . فما كان منى الا أن عبرت عن متعتى بربع جنيه

اهبه من ميزانيتي المحدودة للحارسة ـ وكانت سيدة ـ مكافأة لها على ما أمتعتنى به . أخشى ان أنا ذهبت اليوم لأستعيد ذكرى ذلك الحادث العظيم ، أن أجد دورة المياه وحارستها قد أزيلتا من الوجود كما أزيلت أخوات لهـا بالقاهرة .

لست من هواة الشكاوى ، بل أنا ممن يؤمنون بأننا لا يجب أن نلقى عبء المسئولية كلها على السلطة ، بل لابد من المشاركة فى حل المشاكل بما درجنا على تسميته « الجهود الذاتية » ، لكنك تعلم يا سيدى المحافظ اننى لم أهدم دورات المياه بالجهود الذاتية ، وبالمثل فلست أستطيع اعادة بنائها فى كل حى أو شارع رئيسى بالجهود الذاتية .

لقد سافر حفيدى الى الخارج خلال أجازته الصيفية هذا العام ، وحين عاد لم يكن له من حديث الا المقارنة بيننا وبينهم ، وقـد جذب سمعى من حديثه الفقرات الخاصة بدورات المياه وتوفرها وجمالها ونظافتها ورائحتها العطرية حتى انه حين دخلها أول مرة لم يكن يريد أن يغادرها بسبب ما أحسه من راحة نفسية بالاضافة الى راحته البدنية ، ولست أطمع يا سيدى المحافظ فى شىء من هذا ـ فأنا رجل واقعى ـ كل ما أطلبه من سيادتكم اعادة بناء الدورات . المصيبة أنها كانت موجودة فعلا ، وبدلا من أن تتضاعف عددها ـ كما تضاعف سكان العاصمة ـ اذا بها قد محيت من الوجود .

ضيق المثانة والخلق

زيد بن عبيد

مرثيـــة

حبيبتى القاهرة

من ذا الذى اخرج أمعاءك ، ونثر اشلاءك ؟ هل حفرت شوارعك أظافر مجنون ؟ هل قطع مواصلاتك ، ولوث مياهك ، ورفع أسعارك غريب مخمور او عدو مأجور ؟ هل شخت أم شاخ سكانك ؟ .

أين جمالك وزينتك ، وعبقك وخضرتك ، وهدوؤك ونظافتك ؟ .

كيف شـوهوا حسنك ، وملؤوا بالبثور خدودك ، وبالتجاعيد والأخاديد وجهك ، وأصبح كل من يساوى ولا يساوى يسخر منك .

كيف استباحك أبنـاؤك ، وفعلوا بك ما لم يفعله اعداؤك .

كيف أطلت ــ يا قاهرة ــ مآذنك وأبراجك الطاهرة ، على ألف ألف قاذورة ، وألف ألف مستنقع ؟ .

كيف خرج من رحمك خونة عقدوا معاهدة ملعونة مع الذباب ، صديق الموت والعذاب ، بمقتضاها هيأوا له من النفايات فراشا وثيرا ، ومن القرفات المعديات طعاما هنيئا وفيرا ؟ .

كيف ضاقت مبانيك ، على البسطاء من أحفاد أحفاد بانيك ، واتسعت لغير بنيك ؟ حبيبتى ، هل لم يعد أمام عشاقك الشعراء الا أن يتباروا فى رثائك ؟ .

آه ... لم يكن يومك يا قاهرتى المقهورة ...

امضاء

العاشق الحزين

زيد بن عبيد

الى السيد وزير المواصلات

باسم آلاف الموظفين الغلابة دافعى الضرائب ، وباسم أبنائهم وبناتهم الطلبة فى الجامعات والمدارس الثانوية والاعدادية والابتدائية ، وباسم العمال ومصانعهم التى تتوقف كلما تعطل هذا الشريان الحيوى المسمى مترو حلوان . باسم باعة الخضار الذين يملأون ردهات المترو بقففهم وزكائبهم المبتلة بالجرجير والنعناع والخبيزة والسبانخ ، باسم رواد المسرحيات والأفلام وركاب آخر الليل من سكان هذا الخط ... باسم كل هؤلاء أتوجه اليك يا سيدى الوزير لعلك تتعطف وتتنازل وتركب معنا هذا المترو اللعين لترى كيف نحشر فيه كالبهائم وكيف تذل آدميتنا . ألسنا ندفع ضرائب مقابل خدمات ، فلماذا نستمر فى دفعها وقد توقفت الخدمات وعلى راسها بند المواصلات ؟ ومع ذلك فنحن لا نركبها مجانا ، بل نحن نتعذب فيها يوميا مقابل تذكرة ندفعها ثمنا لهذا العذاب .

لا تصدق يا سيدى الوزير ما يقولونه لك عن قلة

الامكانات ، فهذه شماعة يعلقون عليها اهمالهم وما هو اكثر من اهمانهم . السادة المسئولون عن تسيير هذا المترو يعلقون ارتباك حركته احيانا على انقطاع التيار أو انقطاع سلك كهربائي أو وقوع حادث : انقلاب احدى عرباته أو اصطدامه بسيارة عند أحد مزلقاناته .. ولكن هذا هو الاستثناء ، أما المألوف فهو ما نراه من اندفاع قاطرات المترو واحدة وراء الأخرى أمامنا على الخط المقابل بينما تزدحم محطتنا بالركاب وكأننا يوم الحشر : طالب أوشك أن يفوته موعد امتحانه ، مريض يسنده اهله على موعد مع طبيب ، مسافر ازف موعد قيام طائرته ، عاشق على موعد مع حبيب وكلاهما على موعد مع فيلم قد حجزا مقعدين ليشاهداه أو يشاهدهما ، ونسأل أهل الذكر : هل هو عطل أم تأخير ؟ فيجيبنا صوت غير مكترث : مجرد تأخير ، كلها دقيقتان . اما الفرق بين اصطلاحى العطل والتأخير ، فهو ان الأول معناه وقوع حادث يترتب عليه تعطل الحركة نصف يوم على الأقل ، وعلى كل من كان فى نيته الركوب تدبير أمره أو فليضرب رأسه فى حائط المحطة ، فنحن أمام مسائل تتعلق بالقضاء والقدر ولا دخل فيها لارادة انسان .

أما التأخير فأمره بسيط : نصف ساعة أو ثلاثة أرباع الساعة فقط نتيجة ارتباك واهمال وعدم اكتراث بمشاعر الناس . ويقفز أحدهم صائحا وهو يكاد ينفجر غيظا : هذا تخريب متعمد حتى يكره الناس الحكومة . بينما يتساءل آخر : هل هناك جاسوس لاحدى دول الأعداء ؟ وأخيرا تهل علينا عربات المترو التى طالما اشتقنا لرؤياها وتطلعنا لمجيئها حتى التوت رقابنا وجحظت عيوننا .. لقد وصلت القاطرات التى رأيناها على الخط المقابل

بعد ان اكملت رحلتها الى محطة حلوان وها هى ذى الآن تعود مكتظة ، لا تستطيع أن تزدرد فردا واحدا . وهكذا لا يكون وصولها وقيامها الا لزيادة غيظ خلق الله المطوعين فى حر الصيف وبرد الشتاء . ومع ذلك فلا يعدم الحال أن يتقدم مغامر جرىء محاولا ان يجد مكانا لذراعه أو قدمه . ولكن فجاة وبلا سابق انذار ينطلق المترو بينما النساء والأطفال والشيوخ ما يزالون يغادرونه أو يحاولون ركوبه ، وتطير فردة حذاء لتستقر فوق القضبان ، وينقطع زرار من جاكتة رجل أنيق ، وتسقط باروكة احدى السيدات ، بينما تصرخ أم أو طفلة لان المترو الغدار قد فرق بينهما ، احداهما التهمها زحامه والأخرى لم يسعدها الحظ ، ويقع من يقع وينكسر من ينكسر فما أرخص البنى آدم ، ولعلها محاولة لحل مشكلة التكاثف السكانى .

وتطل على هذا جميعه فى ختام الرحلة بالنسبة لبعضنا واستفتاحها بالنسبة للبعض الآخر ساعتان كبيرتان مثبتتان فى مكانين مرتفعين احداهما داخل المحطة النهائية والأخرى على الحائط الخارجى تعلن كل منهما عن وقت مخالف للأخرى تمشيا مع هذا الذى تطلان عليه ، وحتى لا تشذان عنه . فقد كانتا ذات يوم مضى تقومان بالمهمة التى تقوم بها كل ساعات الدنيا : تحديد الوقت بالثانية والدقيقة . فلما أفلت العيار وأصبح الوقت لا يقاس بالثوانى والدقائق بل بربع اليوم ونصف اليوم ، وجدتا ألا جدوى من تحركهما ، فآثرتا التلكؤ فالتوقف - فلماذا تشذان ؟ - وأعلنتا متضامنتين أنهما لن تستأنفا حركتهما الا اذا رد للوقت اعتباره .

ولن أحدثك عن الأتربة التى تغطى مقاعد العربات

الخارجة لتوها من مخازنها لنساهم نحن الركاب بثيابنا في مسحها ، فضلا عما يتجمع فى أرضيتها من نفايات لا تجد من يشرف على ازالتها فى نهاية الخط وبدايته .

ولن أحدثك يا سيدى الوزير عما يحدث فى هذا الزحام لأمهاتنا وزوجاتنا وأخواتنا وبناتنا ، ولا عن حوادث النشل يتفنن فيهـا محترفوها الطلقاء فتجمع بين الطرافة المضحكة والمأساة المبكية . اذا كان لديك الوقت فدعنى أقص عليك احداها لا لأنها أطرفها بل لأنى كنت أحد شهود العيان ، فقد طلب أحد الواقفين على الرصيف — ومن خلال النافذة والقطار يهم بالقيام — حقيبته التى نسيها فوق شبكة العربة بالداخل ، وبكل انسانية وشهامة لبى الجالس بجوار النافذة حاجته . وما أن تحرك المترو حتى دبت فى العربة معركة بدأت بصياح أحد الواقفين صياحا أقرب الى الخوار لأن حقيبته التى كانت فوق الشبكة وبهـا أوراق هامة مصلحية وخاصة قد اختفت ، ويكتشف الجالس الشهم انه كان ضحية شهامته وانسانيته ، ووسط تبادل الشتائم والاتهامات لا تعرف من اللص ومن الضحية .

ولن أحدثك يا سيدى الوزير عن النوافذ التى تستعصى على الفتح أو الغلق فينفذ منها برد الشتاء الى نخاعنا وغبار الصيف وصهده الى كل فتحات وجوهنا حتى حلوقنا يضاعف منها سرعة القطار ، ونطل منهـا على جانبين تؤذى العين رؤيتها ، ولكن هذا خارج عن اختصاصك يا سيدى الوزير .

ولن احدثك من الأبواب ـ شقيقة النوافذ ـ نصف المغلقة كعيون الخبثاء ، تتضافر مع شقيقاتها فى تعذيبنا ببرد الشتاء وغبار الصيف وصهده . وعند المحطات يكون على الآلاف أن يتدفقوا اليها خلال ثوان ، فاذا وقع ـ لا قدر الله ـ حادث ، فهناك شماعة القضاء والقدر معلقة معدة نعلق عليها فوضانا ـ وتقصيرنا . ولقد اكتشفت ـ يا سيدى الوزير ـ ومن خلال مترو حلوان ان للعصر الحديث ميتافيزيقاه أى تلك الاشـــياء التى نلمس آثارها ولا نلمسها ونتحدث عنها ولا نراها مثل : القول ، التنفيذ ، الروتين ... الخ .

قاذا تدفق آلاف الركاب على الرصيف كان عليهم أن يهرولوا هابطين فوق خمس أو ست درجات كأنما وضعت خصيصا لكى ينزلق فوقها من بقى سليما منهم ـ وهم ما يزالون ألوفا بحمد الله ـ بسبب سطحها المائل الذى يغرى بالانحدار فوقهـا ، ييسر لهـذا مهمتها ما انتشر عليها من حبات رمل دقيقة ذات صرير منذر عند احتكاكها بأحذيتها المتلكئة . فاذا هبطناها انحشرنا فى منافذ محدودة ضيقة سدتها أحيانا أكوام القمامة أو مستنقعات المجارى . وأحيانا قام بهذه المهمة ماسحو الأحذية وبائعوا الكشرى بل ومن استوطنوها فنصبوا فيهـا أكشاكهم وخيـامهم يصنعون فيها الشاى أو يصلحون الأحذية .

أمر واحد أحب أن اشيد به ـ فلست أحب أن انظر الى الأمور كلها بمنظار أسود وأنا رجل يحب العـدل ـ ذلك هو النظام الموضوع لتأخذ به المصـــلحة أجرها المستحق من الركاب وسط هذه الزحمة الخانقة وبالرغم منها . فكل راكب بلا تذكرة يحصل منه المحصل أجرها مضافا اليها غرامة للمحصل نسبة منها ، بذلك يكافأ

المحصل على جهده وتاخذ المصلحة حقها وزيادة ويعاقب الراكبون بلا تذاكر . لكن الذى يحيرنى أن شبابيك قطع التذاكر تضاءلت فى بعض المحطات الى شباك واحد مع ان أعداد الركاب تتضاعف والعمالة زائدة بحمد الله ، وتكون النتيجة ارغام ابعض على الركوب بلا تذاكر او تعطلهم وتكدسهم فى طوابير طويلة أمام الشباك اليتيم .

المهم ان القاطرات ما تلبث ان تتوالى حتى ليكاد ان يكون اخرها خاليا ثم تعود دورة ما يسمى بالتاخير . اذ تتجمع كل قطارات الخط فى محطة الوصول لتعود تتدافع وراء بعضها فى ايابها لتأخذ خلق الله الذين جاء عليهم الدور فى التكدس والزحام واللا آدمية . فالركاب - كالأيام - دول ، قطار لك وقطار عليك .

يخيل الى يا سيدى الوزير ان المسئولين عن حركة هذا المترو يريدون أن يثبتوا لنا ولغيرنا اننا ما نزال قوما ريفيين ، ولهذا كان الديزل أقل مشـــاكل من المترو الكهربائى والقطار البخارى أقل الجميع مشاكل ، وهكذا نظل نتقهقر حتى نصل الى الحمير فلعلها تكون أسلم المواصلات لأنها أكثر تناسبا مع عقلية هؤلاء الذين يديرون مثل هذا الخط وما يشبهه من آلات ومصانع تخسر بدلا من أن تربح ، فهى لا تتفق ونمط عقليتهم الريفية التى تقيس الوقت بالفصول وليس بالدقائق والثوانى . فلا يزعجهم أن يتعطل الناس عن مصالحهم ساعة أو ساعتين ... عندما تعطل بنا المترو فى منتصف الطريق ذات مرة قال لى سائقه : لا تقلق ، كلها دقيقتان يا والدى . فلما مرت نصف ساعة عاتبته فأجابنى : وهل كنت تريدنى أن أقول لك انه سيتأخر كل هذا الوقت واغضبك وأنت فى سن والدى ؟ وكان يبتسم وانا أكاد انفجر غيظا .

لهذا أقشعر رعباً يا سيدى الوزير كلما قرأت عن نية انشاء مترو الانفاق . فلست أستطيع أن أتخيل ما عساه يحدث ان تمت ادارته بالطريقة الريفية التى يدار بها مترو حلوان ... وتدافعت قاطراته فى جانب ليخلو منها الجانب الآخر المقابل .. لو انقطعت الكهرباء ونعطل المترو المزدحم فى منتصف الأنفاق المعتمة الضيقة محدودة الهواء فى ظهر نهار صيفى قائظ ... سيختفي المرور ويختفى معه الأطفال والمرضى والشيوخ .

لست احب الشكوى فأنا أومن بمبدأ الجهود الذاتية . فهل أقترح أن يشترى كل راكب حمارا ؟ ومع ذلك فالحمار يحتاج الى بردعة والى علو برسيم كل يوم والى اسطبل خاص به لا تتسع له شقق اليوم الضيقة .

أنا أعرف يا سيدى الوزير انك ستقول ان المشكلة ليست على هذا النحو الضيق الذى أتصوره ، فهى متعددة الأسباب متعددة الحلول : فما كان ينبغى أن تتركز المصانع فى منطقة واحدة ، وعربات المترو تنوء بأضعاف حمولتها ، والعين بصيرة والميزانية قصيرة . لكن ما علاقة هذا كله بالقطارات التى تتدافع فى جانب ليخلو منها الجانب الآخر ، وما سر هذه الظاهرة المحيرة ، وقاك الله شر الأسرار ، انه الحليم الغفار ، والعليم الستار .

سيدى الوزير ، المشكلة تزداد يوما بعد يوم : الوحدات تستهلك وتتناقص ، والركاب يتضاعفون بلا رابط ، والقاطرات تتدافع بلا ضابط ، ولا أحد يستطيع أن يتخيل المصير .

فاقد الوقت والاعصاب
زيد بن عبيد

الى من يستطيع التنفيذ

كنت اهم ان أوجه هذا الالتماس الى من يهمه الأمر . حين اكتشفت ان كل من يحب مصر يهمه الأمر . مشكلتنا ليست فى أن الأمر يهمنا أو لا يهمنا ، بل مشكلتنا فى التنفيذ . فلكنا فى جلساتنا نتكلم وننتقد ونقترح الحلول ، فاذا طلعت علينا شمس الصباح وذهبنا الى أعمالنا محاولين أن نضع كلامنا موضع التنفيذ ، أدركنا ان المسألة تتجاوز قدراتنا الفردية المتواضعة ، كأنما هناك اخطبوط وحشى خفى يجثم على قدراتنا ويشلها ، واننا لسنا الا تروسا فى آلة ، وما عساه يفعل الترس الجيد فى آلة صدئة . هناك هوة بين النظرية والتطبيق ، أو جدار بين « من يهمه الأمر » وسيادتك يا « من يستطيع التنفيذ » ، وكأنك كائن هلامى «مزفلط» كلما حاولنا الامساك بك تسربت من أيدينا ، فنتحدث عنك ولا نراك ، ونراك ولا نستطيع الامساك بك ، ونمسك بك لتفلت منا .

نتحدث جميعا عن ضرورة محو الأمية باعتبارها نقطة البداية لكل اصلاح ، نعتمد الميزانية وننشيء الفصول ونعين المدرسين ونحضر الطلبة وتنتهى الدورة الدراسية ونعقد الامتحانات ويجتاز الأميون امتحان محو أميتهم ، ثم يتضح ان نسبة الأمية قد زادت . ونكشف ان خللا قد حدث بين الفكرة والتنفيذ . وان العملية كلها أسفرت عن مجرد تمثيلية : قبض فيها المدرسون أجورهم دون أن يمحوا أمية مواطن واحد ، وعند عقد الامتحان ارتدى بعض المتعلمين ثياب المفترض محو أميتهم وأدوا الامتحان نيابة عنهم ، وهكذا بين الفكرة والتنفيذ انتصب جدار فتعطل مستقبل أمة ، وبين مصلحة الفرد ومصلحة

المجموع فنحت هوة ابتلعت مصلحة الطرفين .

وانا أعلم يا « من يستطيع التنفيذ » أننا نمر بفترة حرجة متعددة الأسباب متعددة النتائج . لعل أهمهما سببان : العدوان الخارجي وهو قدرنا منذ آلاف السنين بحكم موقعنا الجغرافي ، وهذا يكلفنا جهدا ماديا وبشريا واجتماعيا .. الخ في سبيل الدفاع عن حدودنا وشخصيتنا ، ثم عدوان داخلي اسمه تضاعف السكان نتج عن تقدم الطب وانتشار الأطباء حتى الريف ، فتراجع الموت دون مقابل في تراجع من المواليد .. ومع ذلك فنحن نضاعف من أثر هذين العاملين بثالث يبدأ بالروتين الجامد المعقد وينتهي بالفوضى وما اصطلحنا على تسميته بالتسيب .

لقد شاهد ابني الأكبر عندما أوفد أخيرا في مهمة رسمية بالخارج دولا تعاني مثلما نعاني من نقص في مواردها وامكاناتها ، لكنهم لا يضاعفون معاناتهم بالتسيب والفوضى . في موقف لسيارات الأجرة وقف ينتظر ، كان واضحا ان هناك أزمة في هذه الوسيلة من المواصلات ، فالمنتظرون أضعاف الامكانات المتاحة ، لكنهم لا يتنافسون على ركوبها الى حد التشابك بالأيدي كما يحدث عندنا بحيث لا يستفيد بها المحتاج اليها فعلا كالمرضى والحوامل والمرضعات ، بل وقف ابني ينتظر مطمئنا الى انه مهما طال به الوقت سيأتي دوره ويستقل سيارة بلا ادنى احتمال أن تتعرض كرامته ولو لخدش بسيط . وهكذا أصبحت المشكلة في حجمها الحقيقي ، لا يضخمها احساسك بأنك في غابة ، الفائز فيها هو الأوقح والأغلظ .

وانا ارفع التماسي هذا اليك ـ يا من يستطيع التنفيذ ـ لأن احدى حفيداتي تخرجت منذ ثلاث سنوات من كلية الآداب قسم الفلسفة . وبصراحة لم نكن هذه الدراسة باختيارها ، بل ان ما يسمي « مكتب تنسيق الجامعات » رماها فى كلية الآداب ، وتنسيق كلية الآداب رماها بدوره فى هذا القسم بعد نجاحهـــا من السنة الأولى للثانية . وقد اكتشفت حفيدتى ـ كما اكتشفت معها ـ فيما بعد أن التنسيق من أسماء الأضداد فى بلدنا ، أى اللفظ الذى يتضمن المعنى وضده فى وقت واحد . ذلك أنها عندما قصدت وزارة التربية بعد تخرجهـا اكتشفت انها ستعمل فى غير تخصصها ، اللغة الانجليزية او التاريخ أو الجغرافيا ، فتفتيش المواد الاجتماعية قد تشبع بمدرسيه ، ووجدت أن تدريس مادة لم تتخصص فيها جناية على نفسها وعلى تلميذاتها ، واذا كانت وزارة التربية تقبل هذا الوضع ـ لمبررات لديها ـ فان ضميرها لم يقبله . فلما عينتها القوى العـــاملة بعد سنتين فى وظيفـة حكومية ، تأكدت ان أجمل سنوات حياتها قد ضاعت هباء ، فلا عمل لهـــا الا التوقيع بالحضور والانصراف ، ثم الثرثرة مع زميلاتهـــا ـ وبين أصابعهم ابر التريكو وخيوطه ـ حول طعـــامهن وشرابهن وأزيائهن ومشاكل الأزواج والأطفال . وقررت البنت أن تثور على هـذا جميعه ، فانقطعت عن عملها وصرخت فى افراد أسرتها المحتجين : يكفيكم انكم اخترتم لى حياتى حتى اليوم ، دعونى اختار لنفسي من الآن . سأفترض اننى ما ازال بالثانوية العامة والغى من حياتى السنوات السبع التى تلت ذلك وأبدأ من جديد . وهى الآن تتلقى دروسا فى اللغات الأجنبية والاختزال والكتابة على الآلة الـكاتبة

لعلها تلتحق باحـــدى الشركات التى تعلن كل يوم عن حاجتها الى مثل هذه المهارات والتخصصات فى مقـــابل اجور مضاعفة لأن الطلب أكثر من العرض ، ولأن الانتاج فيها حقيقة لا وهم .

ولقد وقفت الى جانب حفيدتى مؤيدا مغامرتهـــا الصغيرة بين دهشة الجميع معلنا أن التنسيق لا يقوم على أى تنسيق ، فيكثر من قبول طلبة الكليات النظرية لأنه ـ ظاهريا ـ لا يكلفنا كثيرا ، لتكون النتيجة فاقدا فى المال والبشر ، ونحن فى فترة أشد ما نكون حاجة الى كليهما .

نلتمس منك يا « من بيدك التنفيذ » أن تستمر سياسة التوسع فى التعليم والتوسع فى العمالة فنحن فى حاجة الى كليهما ، ولكن بشرط أن تتغير خريطة التخصصات فى ضوء خريطـــــة الاحتياجات الفعلية محليا وعربيا وافريقيا حتى نهاية هذا القرن على الأقل .

الحالم بما لا يستبعد على الله

زيد بن عبيد

السيد وزير التربية (التعليم حاليا)

أعرف ان مشاغلك كثيرة مثل كل مسئول فى هذا البلد وربما أكثر : ابتداء من طفل يريد أهله أن يدخلوه دار حضانة مهما كلفهم ذلك ومع هذا لا يجدون له مكانا ، حتى ترقية كبار موظفى وزارتك الى مناصبها العليا . وفى كل يوم أطالع فى الصحف شكاوى الذين تمتد اليهم مظلة رعايتك : طلبـــــة ومدرسين وموظفين وأولياء أمور ، يلجأون اليك لتحميهم مما يقترفه بعضهم في حق البعض الآخر . مولد كبير يا سيدى الوزير

اعانك الله على الخوض فيه .

بعد هذه المقدمة الصغيرة استأذنكم فى الدخول مباشرة فى الموضوع . بصراحة لقد تكونت لدى عقدة من كلمة تنسيق فى بلدنا ، فمكاتب الجامعات والكليات والمدرسين، كلها من أسماء الأضداد ياسيدى الوزير ، هل تصدقون ان قراراتكم الوزارية التى تصدرونها – أو التى أصدرها وزراء سابقون عليكم – لانصاف العاملين بوزاراتكم تفسرها ادارات التنسيق تفسيرا ينتهى بعكس المقصود منها .

قلت سأدخل فى الموضوع مباشرة . الموضوع يتعلق بزوجة ابنى السيد «ق» . كان أمامها يا سيدى الوزير فرصة النقـــل من وزارة التربية أكثر من مرة ، لكنها لشغفها بالتعليم – للأسف – فضلت أن تبقى فى مهنة التدريس ، فكان الجزاء ان الوزارة عند كل ترقية تكاقبها (يبدو من سياق الكلام التالى ان زيد بن عبيد ينحت الفاظا جديدة فى اللغة فكون هـذا الفعل من النصف الأول من الفعل يكافىء والنصف الأخير من الفعل يعاقب ، ومعناه يعاقب شخصا عن عمل يستحق عليه المكافأة) ، وكأنما باستحقاقها الترقية ترتكب جريمة تستحق عقوبة عليها أبسطها ابعادها عن زوجها واولادها لتعمل فى مدينة أخرى ، ولابد أن عندك فكرة عن مأســاة المواصلات فى بلادنا . لماذا توقع عليها هذه العقوبة ، لأنهــا رقيت من التعليم الاعدادى الى التعليم الثانوى أو من مدرسة الى مدرسة أولى وهكذا . . ويشهد أولادها هذه التصرفات ، فتترسب فى نفوسهم المتفتحة مخاوف من وزارة التربية، حتى اذا أنهوا تعليمهم يوما ما فضلوا أن يظلوا عاطلين على أن يلتحقوا بوزارة التربية .

هل تعلم يا سيدى الوزيرمدى شغفها بالتدريس ؟ ان طالباتها يعبدنها ، يتبادلن معها بطاقات التهنئة فى الأعياد، ويقدمن لها الهدايا ، لست أقصد وهن طالباتها ، كلا ، بل بعد أن يتخرجن ويعملن ، فالصلة تظل معقودة بينها وبينهن ، ذات يوم كنت أزور ابنى فى بيته عندما طرق الباب ودخلت آنسة حلوة الوجه أناقتهـــا فى بساطة ملابسها ، ذات شعر أسود مسترسل ، وبصحبتها شاب أنيق مثلها . وبعد زيارتهما فهمت أنهما خطيبان وان الآنسة كانت طالبة منذ سنوات لزوجة ابنى وانهـــا تخرجت من كليتها الجامعية وتعمل معيدة بها الآن وهذا زميلهـــا وخطيبها ، وقد أقبلت الآن بصحبته لتعرفه بمدرستها السابقة وحتى تطمئن الى حسن اختيارها ، فرغم أن والديها على قيد الحياة وقد باركا علاقتهما الا انها تعتبر مدرستها أما ثانية لها . ولهذا فانها استحقت — فيما يبدو — ان تكافبها وزارة التربية على اخلاصها وتفانيها فى عملها الذى تمارس فيه العملية التربوية فى اوسع وأسمى صورها .

قلت سأدخل فى الموضوع مباشرة . لقد تخلفت زوجة ابنى عن احدى ترقياتها لأن طفلها كان مصابا بالحمى يوم عرضوا عليهـــا الترقية المصحوبة بعقـــوبة النقل الى مدينة اخرى ، وكان عليها أن تختار بين حياة طفلها وترقيتها ، وطبعا فضلت أن تتنازل عن الترقية .

ثم صدر قرار وزارى لتسوية المتخلفين فى الترقيات بزملائهم الذين سبقت ترقيتهم . وقد حسبت أن القرار ينطبق عليها ، لكنها فوجئت بتطبيقه على من لا ينطبق عليهم ممن يعملون بالوظائف الادارية اى من غير المشتغلين بالتدريس بينما اغفلت هى تماما ، مع أنها يا سيدى

الوزير الأحق والأقدم والأكفأ بحـــــكم اشتغالها الفعلى بالتدريس . فلما استفسرت عن سبب اغفالهـــــا كان التخلص عجبا : ان القرار لا يطبق الا على المشتغلين بغير التعليم لمساواتهم بالمشتغلين بالتعليم . وبهذه الفتوى العبقرية تجاوز الطرف المتخلف الطرف الآخر الذى كان من المفروض أن يتساوى به . بل رقى من لا يستحق وحرم من الترقية من يســتحق . وأصــبح اللامعقــول معقولا والمعقول لا معقول . وعنــدما قدمت زوجة ابنى الشكوى تلو الشكوى من هذا الظلم الفـــادح الواضح وهددت برفع شكوى الى الجهات القضائية قوبلت بلا مبالاة كاملة . ففى بلدنا يمكن لأى بيروقراطى أن يظلم اى موظف ثم يقف موقف الشامت وهو يراه يتخبط بين المحــاكم سنوات دون أن يخشى عقابا حتى لو اتضح فى النهــاية ظلمه . فالقضاء هنا ينصف المظلوم ولا يعاقب الظالم .

ولقد رفعت زوجة ابنى شكواها الى القضاء المختص منذ أكثر من عامين حيث ما تزال قضيتها تزحف من مرحلة الى أخرى . ورغم أنها حصلت على احكام لصالحها فى كل مرحلة ـ لأن حقها واضح ـ الا أنها ليست احكاما نهائية . والبطء فى العدل ظلم يا سيدى الوزير .

وفى أثناء هذا كله لاحظت ان هناك جرثومة خفية تنخر فى هذه النفس الحساسة لتدمرها شيئا فشيئا . فرغم أنها احتفظت بحماسها الظاهرى ، الا أنها ـ فيما يبدو ـ قد اقتنعت ان أحلامها فى عملها يتناسب تناسبا عكسيا مع حصولها على حقها ، وانها لابد وأن هناك طرقا أخرى ـ غير الاخــلاص والتحمس ـ تمــكن الآخرين من أن يحصلوا حتى على ما هو أكثر من حقوقهم .

واذا كان تخريب النفس الانسانية للمشتغلين بتعليم

أبنائنا أمر لا يهم ... (هنا كلمات قاسية آثرنا حذفها) فلست أشك أنه موضع اهتمامك يا سيدى الوزير ولن يرضيك أن يكون الظلم أطول عمرا من العدل . أما اذا كان مصير شكواى هو مصير شكاوى زوجة ابنى فالأولى أن أطويها بين جوانحى ، فهذا أفضل من أن تتنقل من مكتب الى مكتب تحمل تأشيرة هنا وتأشيرة هناك تبرر اللامعقول وتتجاهل الحق والعدل .

يا مرشد كل غارق الى البر نج من غرقت سفينته ، ولن يكون هناك شيء يماثل استقامتك . واذا وضع قارب المعدية على البر فبماذا اذن يمكن للانسان أن يعبر ؟ وهل عبور النهر بالنعال طريقة حسنة للعبور . لقد حدث صدع فى السد فتدفق منه الماء ، وانفتح فى الكلام . ان مكيال القمح قد طفح ، وكلما اهتز فان الفائض منه ينتثر على الأرض ، وكل من يظلم آخر كمن يكتم أنفاسه .

كن يا سيدى الوزير كالشبع يقضى على الجوع ، والكساء يقضى على العرى ، وكالسماء تصفو بعد العاصفة وتدفىء كل من يحس بالبرد ، وكالنار تطهى الشىء ، وكالماء الذى يطفىء الظمأ . أقم العدل ، والذى عدل عدالته موجود . وعندما يكون الحسن حسنا فالأمر اذن حسن .

زوجة ابنى يا سيدى الوزير ، زوجة ابنى ، زوجة ...

سليل الفلاح الفصيح

زيد بن عبيد المتفاصح

((دعاء))

اللهم أصلح ضمائرنا حتى تصلح مواصلاتنا .

اللهم نظف عقولنا وشوارعنا من المستنقعات والقاذورات .

اللهم طهر قلوبنا حتى تطهر أيدينا من الرشوة ، وألسنتنا من النفاق ، وتصرفاتنا من الاهمال واللامبالاة .

اللهم اجعل ايماننا بك فى السوق مثل ايماننا بك فى المسجد .

اللهم اعطنا القدرة حتى نصفق للمتفوقين ، لا نضع العراقيل أمامهم ولا نحقد عليهم ، بل نهيىء لهم كل فرص التفوق فتزيدهم تفوقا .

اللهم علمنا ان مصلحة الفرد لا تزدهر الا من خلال مصلحة المجموع وان مصلحة المجموع لا تزدهر الا من خلال مصلحة الفرد .

اللهم اعطنا الايمان بأن قدوة الكبار للصغار ، والتخطيط والنظام ، والجهد والانتاج ، والثواب للمحسن والعقاب للمسيء وليس العكس ، واحترامنا حرية الرأى مع اختلافنا معه ، هى العصى السحرية فى عالم اليوم ،

تنصرنا على أعدائنا ، تهبنا المهابة ، ترفع عنا كابوس الغلاء وأزمة السكن والمواصلات ، تشفي تعليمنا من أمراضه ، تنقذ مستشفياتنا من وهدتها وترفع عنها غمتها ، تنظف شوارعنا ومياهنا .

اللهم اجعل أقوالنا أفعالا ، ونياتنا تنفيذا .

اللهم ذكرنا ان آخرتنا تراب فى العين ، ومتر فى مترين .

انك السميع المجيب ..

الراجي عفو الخلاق
زيد بن عبيد المشتاق

شعبان ١٤٠٣ هـ

ايضاح

زيد بن عبيد موظف توفى أخيرا بعد أحالته على المعاش بقليل . وقد عثر فى أحد أدراج مكتبه على تسعين شكوى — وكان سلفه الفلاح الفصيح قد رفع منذ أكثر من خمسة آلاف عام تسع شكاوى فقط كانت كافية للنظر بعدها فى موضوع شكواه وانصافه — أما موظفنا الفصيح فانه لم يكترث بارسال ما تعب فى كتابته بل ظل محتفظا به الى أن وافاه الأجل المحتوم . وهى شكاوى مرسلة الى جهات مختلفة وأشخاص متباينين منهم الأحياء ومنهم الأموات بل منهم من لم يولد بعد . كما انها شكاوى تتفاوت موضوعاتها ما بين شديدة العمومية وشديدة الخصوصية ، وهو يهتم أحيانا بتناول المبادىء العامة وأحيانا أخرى بالتفاصيل والجزئيات . كما ان هناك أكثر من فكرة تلح عليه فى معظم شكاويه آثرت الا احذفها فى حالة تكرارها مثل ترديده أنه لا يحب الشكوى — والدليل على هذا انه لم يرسل واحدة منها الى اية جهة موجهة اليها — وانه يؤمن بمبدأ الجهود الذاتية ... الخ .

ويبدو أن ابناء زيد بن عبيد قد عدلوا عن موافقتهم على مواصلتى نشر رسائل المرحوم والدهم ، فقد طلبوا

مني استردادها لأنهم ـ على نحو ما جاء على لسان اخيهم الأكبر وصديقي ـ راوا أن بها مساسا لأمور شخصية يحرجهم نشرها . ومع ذلك فقد استطعت استبقاء بعض رسائله بعد اقناعهم بأنها ـ وان كانت رسائل شخصية حقا ـ الا انه ليس فيها ما يمس كرامتهم أو يسبب لهم حرجا من قريب أو بعيد .

ولكن يبدو انه كان لزيد بن عبيد رأى مخالف لرأى أبنائه . فقد تصادف انى ذهبت لاول مرة فى حياتى ـ ومن باب حب الاستطلاع ـ الى جلسة من جلسات تحضير الارواح . ومع أننى أقف موقفا محايدا بالنسبة لهذا الموضوع ، الا أننى فوجئت بروح زيد بن عبيد تحضر الجلسة وتملي على الوسيط رسالتها التالية طالبة مني أن أنشرها فيما أنشر من رسائله . ويبدو أن الحديث الذى كثر هذه الأيام عن الضرائب قد أثار شجون زيد بن عبيد وأقلق روحه بحيث اضطرها أن تخرج عن صمتها الأبدى . ومما يلفت النظر أن ما يعذب هذه الروح ، ولعله كان يعذب صاحبها أثناء حياته ، ليس مقدار ما يؤخذ منه من ضرائب ، فهذا ما لم يناقشه أبدا فى رسالته التى أملتها روحه ، ولكن طريقة أداء هذا الواجب الوطني هى التى تؤرقه . فواضح أنه كان يلاقى الأمرين فى هذا السبيل ، وهذا هو ما يريد لأبناء جيلنا والأجيال التالية تجنبه ، فهو مهموم بهمومنا حتى وهو فى العالم الآخر . واظن أن أبناء زيد بن عبيد لا يستطيعون أن يدعوا ملكية والدهم ولا ملكية ما يمليه من رسائل بعد أن توفاه الله . ويلاحظ ان زيد بن عبيد فى رسالته التى أملاها من العالم الآخر ما يزال يحاول الاحتفاظ بروحه المرحة الساخرة التى سادت رسائله التى تركها قبل وفاته

وان كانت الجدية قد غلبت على معظم الرسالة . وفيما يلى هذه الرسالة مع رسالتين اخريين مما كتبه وهو فى عالمنا .

سيدتى الجليلة مصلحة الضرائب

ليس من شك انك فى غاية السعادة لأن سيرتك اليوم على كل لسان ، والمستقبل أمامك ، وخطاب ودك كثيرون، والمعذبين بك أكثر ، وأنت تزدادين تدللا على عباد الله الذين يتطلعون الى نظرة عطف منك .. نظرة يا سيدة السيدات وجميلة الجميلات .

وطلابك مستعدون أن يلبوا لك طلباتك — وان كانوا يطمعون أن ترد لهم خدمات عامة يلمسون آثارها — وهم يقصدونك بكل رهبة وخشوع آملين أن تتنازلى وتتقبليها منهم ، لكن يبدو أنك تتلذذين بتعذيبهم ، وتضعين بينك وبينهم متاهات يشقون فى سراديبها قبل الوصول الى أعتابك السامية والحصول على رضائك العزيز الغالى .

ثم أن لى عتابا معك أرجو أن تتقبلبه برحابة صدر ، فليس مصدره الا غيرة المحب على محبوبه — حتى وان كنت قارقت هذه الديار : لماذا تفرقين فى المعاملة بين احبائك ، فانت تمرين بالموظفين كالطيف الهفهاف ، تأخذين ما تريدين منهم لا يكادون يسمعون لك حسا ، فتحصلين على حقك من مرتباتهم دون اقرارات ولا محاسبين ولا لجان داخلية أو خارجية ... الى آخر هذا الصداع الذى تسببينه لأرباب المهن التجارية وغير التجارية وغيرهم . لماذا لا تريحين الكل أو — على الأقل — من يعلن رغبته فى الراحة والبعد عن الصداع . وتتعلمين درسا من ابنة عمومتك مصلحة التليفونات ، حيث

الفرصة متاحة لكل من يرغب أن يسدد اشتراكه السنوى دفعة واحدة ، فيخف بذلك عبء المتزاحمين على مكاتب التليفون لدفع اقساط اشتراكاتهم مرة كل ثلاثة أشهر . لماذا لا تتيحين الفرصة امام الراغبين فى خصم المستحق لك كله من المنبع وليس جزءا منه كما يحدث الآن ، بحيث يكون موقفه موقف الموظف الذى لا تطالبينه فى نهاية العام بتقديم اقرار او دفع أية مبالغ أخرى لا تتحملها ميزانيته المتواضعة .

ولا أعرف الحكمة من ترك التبسيط الى التعقيد ، فقد كان الممول مخيرا بين تقديم الفواتير الخاصة بمصروفاته او الموافقة على خصم خمس دخله من المهن الحرة مقابل مصروفاته . وكان الكثيرون يفضلون ــ اختصارا للأمور وراحة للبال ــ خصم هذا الخمس على امساك دفتر وحساب كل قرش يصرفه على المهنة مع تقديم مستندات قد يصعب الحصول عليها أو تكون موضع خلاف حول مدى علاقتها بالمهنة مما يتطلب فراغ بال واستعدادا خاصا لا يتوفر لمعظم المشتغلين بالمهن الحرة . وبذلك تصبح الحسبة سهلة بالنسبة لهم ولك يا سيدتى الجليلة فتعطى التعليمات ــ لكل من وقع اقرارا بارتضائه هذا النظام ــ للجهات التى يتعامل معها ــ اذا كان يتعامل مع جهات رسمية ــ بأن يخصم أولا بأول عن كل مبلغ يتقاضاه مصروفاته فى الحدود التى يعلن عنها المشروع الجديد ثم تخصم الضريبة المستحقة على أقل الشرائح . فاذا تبين فى نهاية العام انه لم يتجاوز هذه الشريحة فلا يطالب بما يطالب به اليوم من اثبات ان المبالغ المخصومة فعلا قد وردت فعلا للمصلحة وأن يذكر أرقام الشيكات التى وردت بمقتضاها هذه المبالغ وتاريخ

توريدها وجملة المبلغ المتضمن فى الشيك ... مما يعطل الممول تماما عن الانتاج ويصيبه باليـــاس وهو يتحرك كبندول الساعة بين الجهة التى صرفت له المبالغ ومصلحة الضرائب التى لا مصلحة لها فى أن يتردد عليها الآلاف عشرات المرات . أما اذا زاد الدخل عن الشريحة الأدنى ، فان دفع فروق الضرائب سيكون أمرا هينا لا يثقل كاهله ولا يصيبه فى مقتل .

بل أن لى تجربة مريرة ياسيدتى الجليلة حين عذبتنى فى شيخوختى وقد تجاوزت السبعـــين ولا أستطيع أن اتحرك تلك الحركات الرشيقة التى لابد أن يجيدها كل من يتعامل معك ، فلابد أن يكون ممولك سليم البدن سليم العقل سليم الاعصاب ــ وان انتهى الى غير ذلك فما هو الا من فرط حبك له ــ وأنا شيخ مصـاب بداء القلب وتصلب الشرايين وضعف الذاكرة ، ومع ذلك تطالبيننى بما تطالبين به شبابا كله حيوية وخصوبة وقدرة على المنح والعطاء وارواء ظمأك الأبدى الى المال . فلماذا لا تتكرمين بالاعلان عن تكريم كل من جاوز السبعين باعفائه من التعامل معك مكتفية بما يهبك الشباب من حيويتهم وخصوبتهم ؟ واذا كان الشيوخ يهربون أموالهم الى أبنائهم فان العكس لا يمكن أن يحدث ، فلن يهرب أحد أمواله لشيوخ أشرفوا على نهايتهم . أرجو أن تكونى كريمة مع كل من جاوز السبعين فتعفيه من التعامل معك ولو من ضريبة المهن الحرة . فأنا وان كنت قد غادرت دنياكم الفانية الا أننى لا أريد لأجيال الشيوخ من بعدى ان يلاقوا ما لقيته منك حتى لقد اضطررت ذات لحظة الى ايقاف نشاطى القليل ذعرا منك مع أننى كنت وقتها فى أشد الحاجة الى أن يشعر الناس بأننى ما أزال موجودا .

وختاما فاننى آمل أن يزودك أولياء أمرك بالآلات الحاسبة والأرفف والدواليب والبطاقات التى تفتقدينها مع أنها أوليات العمل المنظم فى أصغر وحدة حسابية . فما بالنا وأنت على وشك أن تتعاملى مع ملايين المواطنين . اخشى اذا بقيت فى وضعك المتواضع أن يحدث أحد أمرين لا ثالث لهما : أما انك لن تنجزى شيئا ، وأما انك ستتعذبين وتزيدين عشاقك عذابا فوق عذابهم الحالى .

تزينى يا سيدتى الجليلة وتعطرى حتى يصبح موعد المحاسبة الضريبية عيدا قوميا كما يحدث فى كل بلد متقدم . أعانك الله وأعان احياء هذا البلد معك .

زيد بن عبيد
دفع ضريبة الحياة
وانتقل الى نعيم بلا ضرائب

الى طبيبى المصرى العظيم

فى الصيف الماضى سافر ابنى الأكبر الى أوروبا بدعوة من احدى الهيئات لمدة ستة أشهر . وقبل سفره — وبمناسبة سفره — جلسنا نتذاكر قصة الصدام واللقاء بالحضارة الغربية الحديثة . أغضضنا الطرف عن الصدام القديم أيام الحروب الصليبية ، ونفذنا سريعا الى مانسميه بداية العصر الحديث حين جاءنا الأوروبيون غزاة ، وذهبنا اليهم نتعلم منهم ونتعرف عليهم عسانا نصد غزواتهم بأسلحتهم . لم تكن أول مرة يسافر فيها ابنى الى أوروبا ، لكنها كانت زيارات سريعة قصيرة يكون فيها أقرب الى السائح . اما هذه المرة فسيقيم فيها كما أقام قبله أسلافه المحدثون ابتداء من رفاعة رافع الطهطاوى الذى لخص لنا رحلته فى كتابه تخليص الابريز فى تلخيص

باريز حتى يحيى حقى فى كتابه « حقيبة فى يد مسافر » وبينهما صف طويل من مفكرينا على رأسهم المويلحى الابن صاحب حديث عيسى بن هشام وطه حسين وتوفيق الحكيم ... كل هؤلاء قد بهرته هذه الحضارة فى جانب منها وأن أنتقدها في حانب آخر . ولعل النظام والدقة والنظافة واحترام الانسان للانسان بل للحيوان على رأس قائمة ما يشيدون به . وعندما سافر ابنى كنا نتساءل عما عساه يلقاه من جديد يبهره .

وجاءتنا خطاباته تترى ، وكانت خطابات قصيرة مختصرة ليس فيها الا أخبار عادية يعلن فيها أنه لم يجد شيئا لم يتوقعه . فالنظام والنظافة والدقة وحسن الأداء وآخر ما وصل اليه الانسان من مخترعات وتذوق للفنون متوفرة حقا لكنها لا تبهره لأنه يتوقعها . وهو على عكس أسلافه لا يبهره ما يراه بل يصدمه ما لم يتوقعه حين لا يكون على المستوى المنتظر : ورقة على أرض الطريق ، تصرف بوليسى مع أحد الغرباء ، سلعة يشوبها عيب ... وفجأة وصلنا منه أول خطاب مطول يقص فيه علينا قصة أقلقتنا جميعا . فقد أصيب بسعال أهمل أمره على مدى ستة أسابيع كاملة . وأخيرا قرر أن يزور الطبيب ، وهو طبيب عينته الهيئة الداعية . سأله الطبيب : هل تشكو من أمراض البرد . أجابه : لا .

- وهل سبق أن شكوت من ارتفاع ضغط الدم .
- نعم وعالجته وكان عاديا قبل مجيئى .
- اذن انت لا تأخذ أدوية تخفض ضغطك حاليا .
- لا .
- آه .. هذه الكحة اذن من ذاك الضغط .

وقاس له الضغط فوجده مرتفعا ، وأتبعه برسم

للقلب . ثم أعلن له ان ما تنبأ به من علاقة السعال بالضغط وأكده له قياس الضغط وكشفه عليه بالسماعة قد وضح فى رسم القلب . وأمره بتعاطى أربعة أدوية منها ما يخفض الضغط ونسبة الماء فى الجسم ، ومنها ما يقوى عضلة القلب ، ومنها ما يهدىء الأعصاب المتوترة . وبعد أسبوع من العلاج كان الضغط قد أصبح عاديا .

وبمجرد وصول خطابه اتصلت بصديقه وطبيبه الأستاذ الجامعى الذى كان يشرف على علاجه قبل سفره ، وهو طبيب يحاول خلق جيل جديد من الأطباء المهرة المخلصين قبل أن يبحث عن شهرة أو مال لنفسه ، يجمع بين الذكاء والتواضع والاخلاص . فبادر بارسال خطاب ـ أو محاضرة ـ الى ابنى من أربع وعشرين صفحة يؤكد فيها ـ على البعد ـ أن هذا التشخيص خطأ مائة فى المائة . فلكى يتسبب الضغط فى الكحة يجب أن يكون قد أدى الى تضخم عضلة القلب ثم هبوطها مما يؤدى الى رشح فى الرئة يتسبب عنه الكحة . وهذه تطورات تحتاج الى سنوات من الاصابة بضغط الدم المرتفع . وكان على طبيبك الأجنبى أن يسألك : هل تنام نوما عاديا ؟ فالمصاب بهبوط القلب لا يستطيع النوم الا جالسا أو شبه جالس . هل تحس بالتعب عقب بذل أى مجهود ؟ هل كشف على رئتيك بالأشعة ؟ هل طلب فحص قاع العين ليتأكد من وجود ضغط مرتفع مستمر ... فلا يكفى أن يكون هناك سعال وضغط لكى يكون هذا من ذاك .

ومع ان ابنى راجع الطبيب الأوروبى ـ على ضوء تفسيرات صديقه ـ الا أنه ازداد تشبثا برأيه وما توصلت اليه آلاته قائلا : طبيبك المصرى يشخص حالتك من على بعد آلاف الأميال أما أنا فبالكشف عليك وأنت أمامى .

وتحديا للطبيب المصرى قام بعمل اشعة على الصدر ثم كتب تقريرا وقعه بامضائه يردد ويؤكد فيه تشخيصه مما هز ثقة ابنى ـ ذات لحظة ـ فى صديقه وطبيبه المصرى ، وأفسد عليه متعة أيامه الباقيات فى غربته رغم ما كان يلقاه من حظوة وتقدير .

فلما عاد الى مصر المحروسة ، وكشف عليه طبيبه المصرى العظيم ، اتضح ان الطبيب الأوروبى قد أولى الآلة كل ثقته وعطل تفكيره فوصل الى استنتاجات خاطئة . تماما كما يعتمدون على الآلة فى رفع أثقالهم فلا يستطيعون رفع عشر ما يرفعه حمالونا ، وكما اعتمدوا على الآلات الحاسبة فيضيقون بالاعتماد على عقولهم امام عملية حسابية بسيطة .

وقد ذكرنى هذا بنفس هذا الابن عندما كان صبيا لا يجاوز العاشرة واصيب بسخونة لم تزايله أكثر من عشرة أيام . فلما استدعينا له الطبيب المختص امر بعمل تحاليل معينة رأيت أن أضيف لها من عندى تحليل حمى التيفوئيد ، وكانت النتيجة سلبية كل التحاليل ما عدا التحليل الذى لم يطلبه الطبيب . ومع ذلك فعندما علم بالنتيجة لم تهز شعرة فى رأسه وأعلن بكل ثقة ان هذا التحليل غير دقيق لأنه كان يجب أن تكون هناك أعراض مصاحبة لهذه الحمى لو أنه كان صحيحا . وأعلن ان الأمر لا يعدو أن يكون اصابة بسيطة بالانفلونزا . ورغم اننى شككت فى هذا التشخيص ، الا أن شفاء ابنى فى اليوم التالى مباشرة اكد لى صحة راى الطبيب .

تحية الى طبيبنا المصرى العظيم ، وعقبال ممرضينا وممرضاتنا .

الفخور بطب بلاده
الحزين على تمريضه
زيد بن عبيد

الى القرن الحادى والعشرين

أنا الفرد المسحوق فى القرن العشرين .
فى القرن التاسع عشر سحق الفرد المجموع .
فى القرن العشرين سحق المجموع الفرد .
أنا الفرد المسحوق المنسحق ، المطحون المتطحن .

كالأرانب توالد الناس .
العرض أصبح أكثر من الطلب .
أصبح الفرد رخيصا فى سوق المجموع .
افترسه تنين المجموع .

كتبت شكوى ،
قيل لى اكتب ألف شكوى .
أنت واحد ونحن تسعة وتسعون .
أنت فرد ونحن ملايين الأرقام .

أنت رقم فى سجلاتنا .
ما قيمة أن تأتى ، ما قيمة أن تذهب .
أنت فرد فان ، ونحن الجمع الباقى .
من قبلك كنا ، من بعدك نبقى .

انا الفرد فى البيت ،
فى المقهى وفى الملهى .
انواقف أمام المكتب ،
امام باب المكتب .

ونحن المجموع الجالس خلف المكتب .
نحن الأبواب المغلقة .
نحن اللجان داخل الأبواب المغلقة .
نحن المخفى المرئى ، المجرد الملموس .
نحن مجموع افراد .
لكن المجموع فينا يسحق الفرد منا .
نحن الآلة ،
نحن تروس الآلة وأزرار الآلة .

أنا المتهم أنا المدان .
ونحن الاتهام نحن القضاة .
أنا الفرد المسحوق المطحون .
ونحن المجموع الساحق الطاحن .

وأنا أحلم ...
أحلم بعصر يتصالح فيه الفرد والمجموع .
عصر يزدهر فيه الفرد من خلال المجموع .
ويزدهر فيه المجموع من خلال الفرد .

القصيدة ناقصة الوزن
لمؤلفها ناقص الموهبة
زيد بن عبيد

حبر على ورق

- ١ -

كثيرا ما أتساءل وأنا أقرأ ما يكتب فى كثير من الصحف والمجلات حول أوجه السير العرجاء فى كثير من مصالحنا وهيئاتنا ، أتساءل اذا ما كان هذا النقد من باب النفخ فى قربة مقطوعة ، وما اذا كانت هذه المصالح والهيئات تنظر الى صحافتنا نظرتها الى هايد بارك اخرى الكلام فيها للتنفيس لا التنفيذ .

ويجب أن نفرق بوضوح بين عقبات نواجهها بسبب الضغوط الاقتصادية والعسكرية وعقبات نواجهها بسبب سوء الادارة والتنظيم . اننا جميعا على استعداد لتحمل اثر الضغوط علينا ، لكن اذا كنا خمسة أشخاص وليس امامنا الا رغيف خبز فانه ليس مقبولا أن يختطفه شخص أو شخصان بينما المنتظمون فى الطابور يعاقبون على انتظامهم بالخروج من الطابور بلا حمص ، ثم تكون المعركة هى الشماعة التى يعلق عليها نفاد الرغيف ، والمعركة بريئة من هذا الفساد .

واذا كان هناك نقص فى السيارات العامة أو سيارات الأجرة بسبب ضغوط المعركة ، فان دور الادارة يبدأ من الصيانة حتى تنظيم الركاب بحيث لا يسبق شاب مكتمل الصحة شخصا مسنا أو سيدة تحمل طفلا أو حاملا ، وقد رأينا فى دول أخرى نقصا ، فى وسائل المواصلات ولكن

الاطمئنان الى ان دورى آت يقلل من متاعب الانتظار ، بيسما نحن نضاعفها بالتنافس والفوضى .

ونشكو وتنشر الصحف الشكاوى ، وكأن المسئولين فى معظم المصالح والهيئات لكل منهم اذن من طين والأخرى من عجين ، أو لعلهم أصبحوا محصنبن ضدها من طول ما تعودوها ، بل لعلهم يقتاتون بها قبل أن تقتات بهم .

ذهبت يوما أشكو لمسئول فى تنظيم القاهرة من فجوة تركت شهورا فى الشارع المؤدى الى بيتى ، وحين عرف اننى يمكن أن أرفع صوتى الى أبعد من الجدران الأربعة التى تضمنا رحب بى وكأنى هبطت من السماء ، فقد بح صوته هو أيضا من الشكوى لمن هم أعلى منه مسئولية لنقص معداته ورجونى أن نرفع صوتينا معا .

نحن نعرف ان عبء التنفيذ لا يجب أن يلقى كله على عاتق أجهزة الدولة ، وان أفراد الشعب والأجهزة الشعبية مطالبة بالمشاركة فى التنفيذ عن طريق ما اصطلحنا على تسميته بالجهود الذاتية وبالرقابة أيضا ، فقد تمت تسوية الفجوة خلال أسبوع من مقابلتى للمسئول فى تنظيم القاهرة بالرغم مما أبداه من اعذار . لكن أجهزة الدولة هى القدوة وهى المشجع .

— ٢ —

يقول الأطباء المتخصصون فى أمراض تصلب الشرايين التى تؤدى الى الذبحة الصدرية او الشلل النصفى ان أسبابها الرئيسية ترجع الى ثلاثة عوامل : عامل وراثة لا صلة لنا فيه ، وعامل انفعالى التحكم فيه ممكن الى حد ما لأن الوراثة ما تزال تلعب دورها هنا عن طريق الجهاز العصبى ، ثم عامل التغذية من حيث النوع والكم ، وهذا عامل يمكن للفرد ان يتحكم فيه ، ولا عذر

لمن يدعى بأنه لا غناء له عن نوع معين من الطعام فهناك شعوب بملايينها تأكل ما لا نستسيغه نحن ولا نستسيغ ما نأكله نحن ، فالطعام عادة مكتسبة يمكن للفرد أن يغيرها لصالحه . وقد كانت شهيتى فى صباى تتفتح لرائحة التقلية بينما هى اليوم تثير فى رغبة الغثيان . وبالتحكم فى عاملى الانفعال والغذاء يمكن ترويض عامل الوراثة وتقليل خطورته الى حد ما .

ويقول أطباء السياسة المتخصصون ان ما تعانيه مصر اليوم يرجع أساسا الى ثلاثة عوامل أيضا : أما أولاها فهو العامل الجغرافى والاستراتيجى مما جعلها هدفا للقوى الكبرى على مر العصور منذ غزاها الفرس ، وهذا قدرنا ولا حيلة لنا الا بمجابهته . انه أشبه ما يكون بالعامل الوراثى . أما العاملان الآخران فهما التضخم السكانى الخطير والفوضى الادارية الأكثر خطورة . وهما عاملان لابد من التحكم فيهما اذا أردنا التصدى للعامل الأول وترويضه وتجنب خطره وخطورته . فعدم التحكم فى هذين العاملين هو الذى يؤدى الى ضعفنا مما يغوى بنا القوى الكبرى ويثير شهيتها فى التهامنا . وطالما قيل ان أحد الأسباب الرئيسية التى شجعت على دق الاسفين الاسرائيلى فى منطقتنا العربية هو الظن بأننا اضعف من أن نتصدى له .

فزيادة النسل تأكل كل زيادة فى الانتاج بل تتجاوزه الى حد الارهاق ، وتأتى الفوضى الادارية فتزيد الأمور سوءا ، فحتى القليل الذى لدينا يتبدد ، وتتبدد معه طاقاتنا ، بحيث وقر فى النفوس أن المخلص يعاقب والفهلوى يكافأ . اليس غريبا ان المصرى كفرد تبرز عبقريته ، وشاهدنا على ذلك بطولاتنا الدولية فى الألعاب

الفردية مثل السباحة والاســـكواش والتنس وبعثاتنا التعليمية التى يتفوق فيها كثير من المصريين على زملائهم من أبناء البلاد نفسها التى يدرسون فيها ، وكذلك نبوغ عدد غير قليل فى المهن الفردية كالمحاماة والطب . أما فى الأعمال الجماعية ، عندما يكون المصرى ترسا فى آلة اكبر ، فان عيوبنا ما تلبث أن تظهر ، وشاهدنا على ذلك العابنا الجماعية مثل كرة القدم ، ونظمنا البيروقراطية التى تجعل من الطبيب الناجح فى عيادته موظفا لا حول له ولا قوة فى مستشفياتنا .

من السذاجة القول ان القوى الـكبرى ستنصرف عنا بمجرد نجاحنا فى التحكم فى تضخمنا السكانى أو معالجة عيوبنا البيروقراطية ، ولكن الذى لاشك فيه اننا سنصبح عندئذ لقمـــــة مريرة فى حلوقهم وشرابا غير سائغ فى أفواههم .

ـ ٣ ـ

من مظاهر المجتمعات المتقدمة ان تكون مصلحة الفرد جزء من مصلحة المجموع ومصلحة المجموع هى مصلحة الفرد . وكلما اتسعت الهوة بين المصلحتين كان المجتمع اكثر تخلفا . ولا تستشرى الاختلاسات والرشوة . . الى آخر هذه الانحرافات الا حين يضع الفرد مصلحته فوق مصلحة المجموع ، وهى امراض وبائية ، بمعنى ان المريض بها يعدى السليم .

وهذا الانفصام بين الفرد والمجموع قد يبدو حتى فى التصرفات الصغيرة وان كانت لها آثار بعيدة . فعدم احترام النظام أو القوانين مظهر من مظاهره ، وبذلك تصبح القيم فى وضع عكسى ، أعنى يصبح احترام النظام

دليلا على الضعف ، ومن ينفذ القانون على نفسه انما ينفذه لأنه لا ظهر له ، بينما الدلالة على القدرة والنفوذ هو أن تحصل على ما تريد بخروجك على النظام ، وهكذا يسود قانون الغابة .

حتى الاهمال وما اصطلحنا على تسميته بالتسيب لون من ألوان هذا الانفصام ، فمعناه انني أريد أن أحصل على أجرى فى نهاية الشهر عن عمل لم أؤده ، حاسبا بذلك انني أخدع القوانين الاقتصادية ، ولكن الذى يحدث هو أن القوة الشرائية لهذا الأجر لن تساوى الاقيمةماأنتجته، فيكون ذلك أحد أسباب التضخم الذى أشكو منه وأنا أحد أسبابه .

ولعل أخطر ما ينجم عن الانفصام بين الفرد والمجموع هو تحطيم كل عبقرية تبرز فوق سطح المجتمع ، حتى ليصبح التفوق جريمة يعاقب عليها صاحبها ، بدلا من أن يهيأ له المناخ الذى تزدهر فيه مواهبة . وبذلك يعقم المجتمع ممن كان يمكن أن يطوروه الى أفضل ويظل على تجمده بينما يتاح للمجتمعات الناضجة أن تزداد نضجا مما يوسع الهوة بينها وبين المجتمعات المتخلفة ويتيح لها مزيدا من السيطرة عليها أن عسكريا أو اقتصاديا أو ثقافيا ... الخ .

وهكذا تسود القيم المقلوبة فى مجتمع الانفصام ، فالتهليب شطارة ، والنفاق حداقة ، وخطف اللقمة ممن يستحقونها جدعنة . رأيت مرة سيدة تقف خارج طابور لقطع تذاكر أحد القطارات وهى تحاول أن تقنع أحدا من الواقفين فى الطابور بقطع تذكرتها ، فلما قوبلت بالرفض تحسرت قائلة « هو ما فيش انسانية » وسمعت فى مرة أخرى مدرسة أطفال تحكى فخورة — فى المواصلات

العامة ـ كيف انها قامت بعمل انسانى حين أملت اجابات الامتحان على أطفالها « والنبى كانوا صعبانين على » . واحتج صديق ذات ليلة على زعيق مكبر صوت لسابع جار ظل يلعلع حتى بعد منتصف الليل لحادث حزن أو فرح ـ لست أذكر ـ وقع له ، فقوبل باستنكار شديد لأنه لا يراعى مشـــاعر الجيرة ، وضاعف من جريمة احتجاجه انه لم يكن لديه عذر قوى يدفعه الى هـذا الاحتجاج مثل شيخ مريض أو تلميذ فى ليلة امتحان . وقد أتانى يقص على القصة وهو يتساءل ساخطا « من الذى لا يراعى مشاعر من ؟ » .

وكما ان مصلحة الفـرد والمجمـوع متلازمتان فـان العكس كذلك صحيح . فالفرد الذى استفاد على حساب مجتمعه هو جزء من هذا المجتمع الذى شـــارك فى تخريبه ، وبذلك فكما يعانى الناس من تصرفاته سيعانى هو بدوره حين تكون له مصالح عند الآخرين لأن أمثاله منتشرون فى كل مكان يقصده . لكن الأخطر من ذلك انه سيغرق فى النهاية مع السفينة التى يشارك هو فى ثقبها .

ـ ٤ ـ

روى لى الدكتور عونى عبد الرءوف ناظر المدرسة الانجيلية الألمانية بالزمالك أنه دهش عنـــدما لاحظ أن أساسات المدرسة الجديدة التى تبنى فى الدقى تصل الى عدة أمتار فى باطن الأرض مع ان أدوار المدرسة لن تتجاوز دورين أو ثلاثة . وعندما استفسر من المهندس الألمانى أجابه بأنه من المتوقع أن يسبب احتفاظ النيل بارتفاع مياهه طوال العام بسبب انشاء السد العالى

ارتفاعا فى منسوب المياه الباطنية خلال السنوات العشر المقبلة مما قد يكون له تأثيره على الأساسات الضعيفة لاى بناء ، وانه يدخل فى اعتباره هذا التطور المتوقع حدوثه مستقبلا .

وفى مقابل هذا النوع من التفكير ، نجد آخرين لا يفكرون الا بعقلية اللحظة المؤقتة . فالحضارة المعاصرة تغلب الحاضر — على مستوى الجماهير على الأقل — على كل من الماضى والمستقبل . وهذا هو أساس فكرة الموضة مثلا ، فهو أسلوب تجارى يستخدم على أساس رواج موديلات اللحظة الحاضرة وبوار كل ما عدا ذلك . وهو كذلك أساس انتشار وسائل الاعلام — كالصحيفة اليومية — التى تكتسب أهميتها ثم تفقدها من يوم الى يوم بل من ساعة الى أخرى وتغلبها على الكتاب مثلا الذى قد لا تكون له نفس أهمية الصحيفة فى اللحظة الحاضرة لكنه ابقى منها لأنه يحتفظ بالماضى للمستقبل.

ومجتمع اللحظة المؤقتة مجتمع بلا جذور ، لا يستطيع أن يقاوم تحدى المجتمعات التى تمتد جذورها راسخة فى الماضى ، وتتطلع للمستقبل وتخطط له فى ضوء خبراتها الماضية .

والماضى هو ذاكرة الفرد ، وفرد بلا ذاكرة لا شخصية له ، والتاريخ ذاكرة الأمة ، وأمة بلا تاريخ لا شخصية لها . لهذا لابد من بث تاريخ الأمة فى عقول الأجيال الناشئة وحفرها فى ذاكرتهم ، لا بما يتلقونه من دروس بالمدارس الابتدائية والاعدادية فقط ، بل بكل وسيلة ممكنة : بعث الرحلات الى اماكننا الأثرية ، اقامة تماثيل للبارزين فى تاريخنا فى الميادين العامة ، الدعاية لمتاحفنا ،

نشر الطابع القومى فيما نستخدمه من أدوات الحياة اليومية واثاث منازلنا ولوحات جدرانها .. الخ .

أما المستقبل فهو الأمل الذى بدونه لا حياة لفرد أو أمة ، وفى حضارتنا العلمية لم يعد يترك المستقبل للمقادير ؛ بل أصبحت فى كل دولة تقدر المسئولية وزارة للتخطيط ، تخطيط الحاضر فى ضوء متطلبات المستقبل وتطوراته المحتملة والمطلوبة .

أليس ما يعانيه مشروع أنفاق القاهرة من عقبات سببه ان الذين خططوا لعاصمتنا قديما لم يحسبوا حساب المستقبل ، ان كانوا قد خططوا لها أصلا .
وعلى مستوى العالم العربى فان على دول البترول الا تعيش بأموال البترول لحظتها الحاضرة بل تمول بها ما تخططه لمستقبلها من مشروعات نكون مصدر ثروتها بعد نفاد البترول فى نهاية القرن كما يتنبأ العالمون ببواطن الأرض .

ولا قيمة لحاضر لا يصب فيه ماض يستفاد من خبراته ودروسه ولا ينبع منه مستقبل يحسب حسابه ويخطط له ..

أن مجتمع اللحظة الحاضرة هو مجتمع التضخم السكانى ، المجتمع الذى تعلو فيه مصلحة الفرد على مصلحة المجموع ، وشعاره أنا وبعدى الطوفان . أما المجتمع الموصول بماضيه المهموم بمستقبله فهو مجتمع تنظيم النسل ، المجتمع الذى يجعل مصلحة المجموع فوق أى مصلحة ، فلا وساطات ولا رشاوى تحت أى ستار ، مجتمع شعاره ، زرع أجدادنا الزيتون لنا ، ونزرعه نحن اليوم ليأكله أحفادنا من بعدنا .

حلم طالما طاف بخيال الكثيرين نرجو أن تحققه وزارة الثقـافة ، ذلك هو شراء بيوت المفـكرين والفنانين من ورثتهم تمهيدا لاحالتها الى متاحف . اشترت فيللا أحمد شـوقى ولـكن تعثر شراء فيللا الدكتـور طـه حسين وأم كلثوم . وهو تقليد عظيم فى كل بلاد الدنيا التى تدرك أن التاريخ ذاكرة الأمة ، وأن أمة بلا تاريخ كشخص بلا ذاكرة . وأن التاريخ ليس مجرد ما نقرأه فى الـكتب رغم الأهمية البالغة لذلك . وهو ليس مجرد المناطق الأثرية ولا حتى المتاحف التى تضم المبعثر مما يعثر عليه فى هذه المناطق وينظمها ويحسن عرضها . فالتاريخ حركة مستمرة ، وعلينا أن نعرف حاضرنا القريب كمـا نعرف ماضينا البعيد . واذا كانت آثارنا الفرعونية قد استطاعت أن تقـاوم الزمن لأن الذين أقاموها كانت تسيطر عليهم فكرة الخلود المادى ، أى بعث الأرواح فى أجساد أصحابها بما يحتاجون اليه من طعام وشراب وخدم وحشم ، فان آثارنا القريبة لن تقاوم الزمن مقاومة مماثلة اذا نحن تركناها تحت رحمته لأنها تقام على أساس عقيدة مختلفة فى الحياة الأخرى .

لهذا يحرص المسئولون فى كل بلد على شىء من الوعى أن يقبضوا على التاريخ المعـاصر وشـواهده قبل ان يندثر ، ويبقوه حاضرا فى أذهان المواطنين بل والأجانب العـابرين وذلك بمختلف الطـرق وفى كل مكان يمكن استغلاله حتى يظل واقعا ملموسا وليس مجرد ذكرى من أيام التلمذة . واقامة النصب التذكارية لبطـولات الأمة والتماثيل لعظمائها وشراء بيوتهم وتحويلهـا الى

متاحف أحدى هذه الوسائل ؛

وكم أسفت حين علمت ان وزارة الثقافة لم تستطع أن تحصل من بيت شوقى الا على جدرانه ، أما أثاثه — الذى كان يمكن أن يكون نواة متحفه — فقد بيع بثمن أقل بكثير من قيمته الآثرية قبل أن تتم صفقة البيع مع وزارة الثقافة .

بقى بعد ذلك أن نحسن العرض ونحسن الدعاية وننجح فى أن نجعل هذه المتاحف ثقافة وسياحة وتجارة كما تفعل كل بلاد العالم المتحضرة فنستفيد ونفيد . وان يؤمن قبل ذلك كله المسئولون عن التمويل أن مثل هذه المشروعات — اذا أحسنت ادارتها — تدر من الاموال أضعاف ما ينفق عليها فضلا عن عائدها المعنوى وقيمتها التى تتضاعف بمضى الزمن .

والعقبى لمقبرة العظماء ، الحلم الذى طاف بخيال المرحوم يوسف السباعى ولم يتحقق حتى اليوم .

— ٦ —

من غرائب الأمور وعجائب الدهور ان هناك أشخاصا ولدوا ونشأوا وتوظفوا فى المدينة ، ومع ذلك فانهم يعيشون بعقلية البدو فى الصحراء ، أو على أحسن تقدير بعقلية الريفى فى قريته ، ذلك ان الانتماء الوحيد الذى يعترفون به هو الانتماء القبلى ، وقبيلة المدينة لا تقوم على صلات الدم مثل قبيلة الصحراء والمناطق المتخلفة حضاريا ، بل على صلات شعارها « شيلنى وأشيلك » . وهكذا نجد فى معظم مصالحنا الحكومية نظام الشلل ، القائم على أساس ان مصلحة الشلة فوق المصلحة العامة ،

ولا بأس ان تحطم أفضل الكفاءات اذا كان ذلك من شأنه أن يخدم أحد أفراد الشلة حتى ولو كان عاطلا من آية موهبة الا موهبة الانتماء للشلة . بل ان معظم أفراد الشلة لا يجمعهم الا انهم عاطلون من آية مواهب أخرى غير موهبة الحقد على الآخرين والتنكيل بهم .

ومن طقوس هذا النظام القبلى - واختلافه مع نظام القبيلة الأصلى المأخوذ عنه - أنه لا يواجه الآخرين أبدا وجها لوجه ، انه أجبن وأذكى من أن يفعل ذلك . انه يترك لهؤلاء الآخرين أن يصرخوا ما شاءوا وأن يكتبوا الشكاوى ويرفعوا القضايا ، بينما يتحرك أفراده فى هدوء ، وقد مدوا عيون أعوانهم الى كل ركن من أركان المصلحة كما مدوا خيوط شبكتهم الواسعة الى كل منطقة من مناطق النفوذ بها ، ليفوزوا بالغنائم وينكلوا بكل من يحاول أن يقف فى وجههم أو يكشف وجههم القبيح حتى ولو بمجرد اخلاصه لعمله ومثابرته وتحمسه - فهذه صفات يفتقدونها . وهكذا فان لهم الأعمال ولغيرهم الأقوال ، لهم التنفيذ ولغيرهم التنفيس . وقد يلقاك أحد أفراد الشلة فيبتسم لك ويسلم عليك بيد بينما تخفى يده الأخرى الخنجر . والمصيبة ان الجيل الأكبر يربى جيلا ناشئا على نفس التقاليد والطقوس ضمانا لاستمرار هذا الأخطبوط الرهيب .

ان وجود هذه القبلية فى مصالحنا الحكومية من أهم أسباب تخلفها وتخلفنا ، لأنها لا تضم الا الحاقدين والموتورين المتفرغين للوقيعة والدس ليطفوا على سطح حياتنا ويفوزوا بما لا يستحقونه بينما يعاقب كل مخلص متحمس على اخلاصه وتحمسه الى أن يصاب باليأس والقرف .

— ٧ —

فى كتاب «وجهة نظر» يقص علينا الدكتور زكى نجيب محمود كيف أنه تلقى خطابا ذات يوم من مكتب حكومى يحدد له موعدا فى الساعة التاسعة من صباح يوم معين ، فذهب قبل الموعد بدقائق ليجد المكان خاليا ، وقال له أحد السعاة أنهم يكتبون التاسعة ويعنون بها الحادية عشر . وحتى عندما حضر الموظف المختص لم يكن فى عجلة ولا فكر فى الاعتذار ، بل طلب القهوة له ولضيفه وحدثه عن قضايا فلسفية تشغله — وقد عرف شخصية الدكتور — ثم بدأ ينظر فى موضوع ضيفه .

وفى مقابل ذلك روى لى صديق كان فى الولايات المتحدة أخيرا أنه ذهب يصلح سيارته عند الميكانيكى المختص ، فوجدها فرصة ليتعلم منه كيفية اصلاح السيارة ويستفسر منه عن بعض آلاتها ، فوجد من العامل ترحيبا ومضى يشرح له باسهاب كان موضع تقدير من صديقنا . وبعد أن تم الاصلاح والشرح تقدم العامل بفاتورة بأجر مرتفع . فلما أبدى صديقى اعتراضه ودهشته ، أجابه العامل مبتسما « هذا أجر الزمن الذى أمضيته معك أشرح لك فيه وكان يمكن أن أمضيه فى اصلاح سيارة أخرى وأتقاضى عن ذلك الدولارات التى أطلبها منك » .

والواقع ان الوقت هو اكبر فاقد فى مجتمعنا . ويعلل الدكتور زكى نجيب محمود ذلك بقوله ان ذلك من بقايا المجتمع الزراعى حيث يقاس الزمن بالفصول وليس بالدقائق والثوانى . فالمجتمع الذى خلق الساعات بدقائقها وثوانيها هو المجتمع الصناعى ، حيث العامل

يقف امام الآلة التى لا يستطيع ان يغفل عنها لحظة لأنه يأخذ منها شيئا أو يغذيها بشىء كل دقيقة أو دقيقتين .

والكلام الذى لا رصيد له مرتبط بالوقت الذى لا ثمن له ، فاذا كان موعد الاجتماع أو الحفل أو الندوة قد تحدد فى ساعة معينة فان هذا معناه أن تبدأ هذه الاجتماعات بعد نصف ساعة وأحيانا ساعة من الموعد المحدد ، والويل لمن يأتى فى موعده ، سينتابه احساس بأنه هو المخطىء ، هو الذى لا يفهم طبيعة الناس فى مجتمعه ، وكان اجدى عليه لو استثمر هذا الوقت ولو فى سمر مع صديقه .

حتى سككنا الحديدية كانت مشهورة بدقة التوقيت بحيث يضبط الأهالى ساعاتهم على مواعيد القطارات التى تمر بهم . فلماذا تصبح مواعيدها بالبركة ، واذا تعطل الركاب تعطل وصولهم الى مصالحهم التى يقضون فيها حاجات الآخرين أو التى يقضون فيها حاجاتهم هم . وقديما قال أجدادنا « الوقت كالسيف أن لم تقطعه قطعك » . وعلى كل منا أن يتساءل من الذى يقطع من ؟ .

— ٨ —

كل من يشاهد معارضنا الصناعية يلاحظ بكل أسف غياب الشخصية المصرية من صناعاتنا المحلية ، فكلها — فيما يبدو — تعتمد على الكتالوجات الواردة من أوروبا أو أمريكا ، بحيث لا نلمس طابعا مصريا فى مصنوعاتنا الا فيما يندر وبطريقة عفوية . وليس هناك عذر بأن مراكزنا المختصة لم تقدم الدراسة المطلوبة لتحقيق هذا المطلب .

فعلى سبيل المثال يوجد بوزارة الثقافة أكثر من مركز مهمته استخلاص الطابع القومى من فنوننا التشكيلية خلال مصر الفرعونية فالقبطية فالاسلامية ، مثل مركز الفن والحياة بقصر المانسترلى عند مقيـــاس جزيرة الروضة ، ومثل مركز بحوث الفنون التشكيلية ببيت السنارى خلف مدرسة السنية الثانوية للبنات بالسيدة زينب ، ومثل دار النسجيات المرسمة خلف حديقة الهابى داى بحلوان ، ومركز الفنون الشعبية بالقرب من ميدان عرابى . كل هذه المراكز وغيرها قامت بدراسات عن الطابع المصرى وما يتناسب من تشـكيلاته المختلفة مع الخامات التى تصنع منها الأدوات التى نستخدمها فى حياتنا اليومية بما فيها من خامات حديثة لم يعرفهـا أجدادنا مثل البلاستيك . فاستخلصوا لنا نقوشا مصرية الطابع ـ فرعونية أو اسلامية ـ وقدموا نمـــاذج على انواع الأقمشة المستخدمة اليوم ، ونفس الشىء فيما يتعلق بالأوانى الخزفية والحلى وقطـع الأثاث والسجاد ... حتى ملاعق الآيس كريم البلاستيك قدم أحد هذه المراكز ملعقة يعرف من يستخدمها انها لابد وأن تكون قد صنعت فى مصر بدلا من هذه الملاعق المستخدمة التى تحس انه لا وطن لها .

وانى لأعجب لماذا لا تستفيد شركاتنا الصناعية مثل مصانع النسيج أو الخزف والصينى أو البلاستيك أو الأثاث أو السجاد ... من هذه الدراسات فيصبح للبيت المصرى طابعه المميز ، بل تلقى هذه الصناعات رواجا بين الأجانب المقيمين أو العابرين على نحو ما تلقاه صناعات خان الخليلى لأن الأجنبى لا يشـــترى صـــناعة عنـــده ما يشبهها .

وفى جناح مصلحة السجون على سبيل المثال تمنيت لو ان المشرفين على هذه الصناعات المتعددة التى يبذلون فيها جهدا واضحا ، تمنيت لو أنهم أولوا اهتمامهم للاستفادة من جهود هذه المراكز التابعة لوزارة الثقافة ومن غيرها ، فلا يقدمون لنا صناعات هى تكرار لغيرنا بل صناعات تعلن أنها صنعت فى مصر وبأيد مصرية ، وحبذا لو خطت شركاتنا الصناعية على نفس الطريق .

— ٩ —

لى صديق فى خريف عمره ، اشترى قطعة أرض ليبنى عليها بتحويشة العمر بيتا يستريح فيه من نكد أصحاب الملك ، ويحقق حلمه فى ممارسة هوايته بزرع وقلع وتقليم وقطف ازهار وثمار أشجار حديقة صغيرة تحيط ببيته عندما يحال الى المعاش . لكن هذا الحلم سرعان ما تبدد عندما برز له أحد لصوص الأرض ليحيل حلمه الى كابوس . والمهم انه عندما لجأ صديقى الى القانون واعتقد أن الحق سيتضح والاغتصاب سينكشف اذا بلص الأرض يلجأ أيضا الى القانون ، ورأى صديقى أرضه تغتصب منه اغتصابا قانونيا ، فخصمه متخصص فى هذه الجرائم التى يرتكبها باسم القانون مستغلا ما فيه من ثغرات لصالحه . وهكذا وجد صديقى نفسه ينفق تحويشة العمر على المحامين والخبراء وكتبة المحاكم بدلا من أن ينفقها على تحقيق حلمه ، ولم يظفر فى النهاية الا بأمراض الضغط والذبحة ..

وأعرف أديبا كبيرا حصل على جائزة الدولة التقديرية وقدرها ألفين وخمسمائة من الجنيهات ، رأي أن

افضل وسيلة تمنعه من تبديدها هو شراء قطعة ارض من طريق احدى الجمعيات التعـاونية لبناء المساكن ،

وعندما هم ببنائها قيل له ان سكرتير الجمعية توفى ولم يترك ما يدل على انك سـدت ثمن ما اشتريت وان ما لديك انما هى ايصالات غير رسمية . وهكذا ابتلعت موهبة سكرتير الجمعية فى لحظة موهبـة أديبنا التى قدرتها الدولة بعد أكثر من ثلاثين عاما من الجهد .

ان من يقتل أو يسرق او يختلس أو يرتشي ... الخ ويتم ضبطه للمحاكمة لينال عقابة انما هو مجرم أهون بكثير ممن يرتكب جريمته باسم القـانون . فقـد وجد القانون لحماية الحقـوق ، فاذا انتشر التحايل باسم القانون لالتهام الحقوق بحيث لا تصبح مجـرد حالات فردية فان الأمر سيصبح ظاهرة تستحق الدراسة لمعرفة الأسـباب وتلافى النتائج ، حتى لا يقـع آلاف البسطاء ضحية النصابين والمحتـالين باسم القانون ، مما يهز الثقة فى القيمة الحقيقية له .

انى أطالب باعادة النظر فى قوانينا التى يتسلل منها هؤلاء المجرمون ، حتى لا تفاجأ بطردك أنت وأولادك من شقتك ذات يوم ، أو بمحضر يحجز على أثاثك تنفيذا لحكم أنت لا تعلم عنه شيئا ، أو بخصم يبرز لك ليغتصب حلم حياتك . فالحضارة تقاس بمدى شعور المواطن بالطمأنينة فى مجتمعه ، ولا طمأنينة الا بسد الطريق أمام كل من يرتكب جريمة ولو باسم القانون .

من الآداب العالمية

من الأدب السوداني

تاجوج

اهتم المصريون منذ زمن بعيد بالسودان والسودانيين ، فتكلمنا عن الوحدة الدينية أو اللغوية أو الاقتصادية أو الجغرافية ، ولكن الكثيرين منا لم يهتموا بدراسة الآداب السودانية والثقافة السودانية ، حتى المثقفون منا . لهذا يعيب علينا شاعر كبير كالتيجانى منذ أربعين عاما مضت قائلا : « ومما يؤلمنا حقا هو أن نظل مجهولين هكذا من ناحيتنا الأدبية حتى فى الأقطار الشقيقة ، واذا تغاضينا عن كل هذه الأقطار فمـا يكون عذر مصر فى جهلها بنا جهلا تاما لا من تلك الناحية وحدها بل فى كثير من النواحى غيرها » .

ولم تغير الأعوام الطويلة شيئا من هـذا الانفصال المرير ، فظل أدباء السودان يعرفوننا ولا نعـرفهم ، ويعرفون ادبنا ولا نعرف أدبهم . واذا كنا نريد أن نعرف الأدب السودانى فلابد أن نعرف منابعه أولا ، ومنابع الأدب لدى كل شعب هو أساطيره وقصصه الشعبى ، لهذا رأيت أن أعرض هنا قصة من أشـهر القصص الشعبية السودانية وهى قصة « تاجوج » .

وقصة تاجوج نشأت فى المجتمع البدوى الذى يمثل جزءا كبيرا من المجتمع السودانى . حقا ان سـكان البلاد

الاصليين هم السود او الزنوج ولكن السودان من قديم الزمان كان قبلة كثير من الشعوب التى هاجرت اليه . يقول عبد الله حسين فى كتابه تاريخ السودان « وهاجرت اليه بعد الفتح الاسلامى قبائل عربية حجازية ويمنية ومغربية وسادت أهله الأصليين وامتزجت بهم بالزواج فكسب الوافدون السحنة الســـودانية قليلا أو كثيرا وشيئا من العادات » .

ويقول الأستاذ محجوب فى كتابه « الحركة الفكرية فى السودان » ان الأمر الذى لا شك فيه هو أن الثقافة العربية هى الغالبة او على الأقل هى التى تستحوذ على لب القارئين وتتأثر بها عقليات الـكتاب .

ومن المعلومات الخاطئة لدى الكثيرين هو الخلط بين النوبيين الذين كانوا يقطنون ما بين الشلال وحلفا وبين السودانيين الذين يعيشون جنوبى حلفا ، لأن للنوبيين لغات خاصة بهم واللغة العربية بالنسبة لهم دخيلة عليهم فلا يستطيعون نطقها نطقــا سليما ، أما الســودانيون فيتكلمون العربية ، وهى عربية أقرب الى الفصحى ، لأن المتكلمين بها عرب وافدون من البــــلاد الحجازية ولا يزال منهم الكثير فى حالة البداوة ، ولهذا فنحن حين نجابه قصة تاجوج نجد انها كقصة قيس وليلى بل أقرب الى قصة قيس ولبنى . وقد تعاون الشعر مع القصة على اذاعتها . الشعر الفصيح والشـــــعر القــومى السودانى ، وهو يشبه الزجل عندنا . وأشهر قوالبه الدوبيت ، ومعناه البيتان ، فالقصة أو الأغنية تنقسم الى بيتين بيتين كل منهما له قافية ولكن وزن الجميع واحد وسنجد أن قصة تاجوج والمحلق لا تمثل قصة عاشقين لا يستطيعان أن يحققا امانيهما ، بل نجـدها

قصة زوجين يخفقان فى علاقتهما وكل منهما يحب الآخر فيتعذب الزوجان عذابا نفسيا هائلا .

ويقال ان هذه القصة نشأت فى أواخر القرن السابع الميلادى أو أوائل الثامن عشر على وجه التقدير .

***

تاجوج هى ابنة زعيم الحمران ، وهى احدى القبائل التى تسكن بادية السودان الشرقية .. وكانت أجمل فتاة فى عصرها .. لم يصلنا عنها وصف سوى الجمال النسائى العام .. فالشاعر السودانى البدوى يقول « جمال تاجوج ما فى مثيله وقد أحبها المحلق وهو ابن عمها .. ولم يكن المحلق فردا عاديا فى القبيلة ، ولا هو يمتاز بكونه ابن أخى زعيم الحمران ، بل كان بطل القبيلة فى معاركها مع القبائل الأخرى لا سيما قبيلة الهدندوه ـ فهو اذن فارس القبيلة وحامى ذمارها وشاعرها أيضا ، وكما كان يحب تاجوج لجمالها الباهر ، فقد كانت هى أيضا تحبه لبطولته ورجولته ورجاحة عقله.

ولقد حدث ذات يوم أن كان الشيخ « عكد » والد تاجوج وزعيم الحمران جالسا بين أشجار الدوم الوارفة الظلال فى يوم من أيام السودان القائظة ، وكان ينتظر ضيوفا أو نزلاء .. فانه موسمهم ولن يحول دون وفودهم الا الخريف حين تسيل الأودية وتمتلىء بمياه الأمطار ويحول الوحل دون الأسفار .. وفجأة تبين الشيخ فى الأفق أشباح رجال ، وكانت الى جانبه تاجوج ابنته ، فسألها ما اذا كانت تتبين القادمين ، فرفعت عينيها وقالت : اننى أرى رجالا من الهدندوة بعضهم على ظهور الابل وبعضهم راجلين يحيط بهم رجالنا وعلى ظهور بعض

الجمال أحمال تمشي بها الجمال مشيا بطيئا . . واختفت تاجوج خلف شجرة صغيرة تراهم ولا يرونها وتسمع ما يقولون ، فلما اقتربوا ورأت سحنتهم علمت ان أمرا جللا قد حدث ، وزاد من اضطرابها أنها لم تجد المحلق بينهم ، وزاد من هلعها رؤيتها لبعض الأجسام المسجاة فى أثوابها وقد سالت منها الدماء وخشيت أن يكون حبيبها من بينهم . . وبينما كان البعض ينيخون الجمال كان البعض الآخر يسرع نحو زعيم الحمران يقصون عليه قصة مؤداها انهم كانوا يصيدون بالأمس فجمح فرس واحد منهم فجعل يعدو خلفها وتتبع اثرها حتى وصل الى حى الهدندوة فذكر لهم أمر جموح فرسه وطلب تسليمها اليه فأبوا عليه ذلك وردوه ردا خشنا فبادلهم الخشونة وبدأت بينه وبينهم معركة أصيب فى أثنائها بجرح بالغ ، وكان اثنان من رجال الحمران قد لحقا به فى هذه الأثناء فوجدوا الهدندوة قد ضيقوا عليه الخناق فواصل احد الرجلين السير لانقاذ صديقه بينما قفل الآخر راجعا ، يحمل خبر القتال . وعلم المحلق بالأمر فسارع مع زملائه لنجدة صديقهم ، وبالرغم من تفوق الهدندوة فقد تغلب عليهم بنو الحمران وأسروهم فيما عدا شخصا هرب ليخبر قبيلتهم ويطلب نجدة . . ولقد ظل المحلق متخلفا مع الصيد الذى اصطادوه بينما سبقوه هم ليخبروا زعيمهم بما حدث . .

وما لبث الشيخ عكد أن امر ثلاثة من خير فرسانه بامتطاء ثلاثة من خير الجياد ، أحدهم يخبر المحلق بالعودة السريعة ، والآخر يلحق بالرسول الهارب ، أما الثالث فيطلب من زعيم الهدندوه مقابلة زعيم الحمران بغير أن يخبروه عن سبب هذه المقابلة . . . ولقد نجح الثلاثة فى

مهمتهم .. واطمأنت تاجوج الى سلامة حبيبها ، وان كانت تخشى أن يصيبه مكروه قبل وصوله الى خيام قبيلته ، ولكنه وصل وأخذ يساعد عمه فى اشاعة روح الصلح والسلام مع الهدندوة الذين قادهم بنو الحمران .. ولقد أقبل الزعيم موسى أخيرا زعيم الهدندوة ، فاستقبل بكل حفاوة وبكل اكرام ، ثم حدثه الشيخ عكد عن غرضه من هذه المقابلة وانه مستعد لدفع الديات رغم أن رجاله لم يبدأوا بالعدوان ، فسر زعيم الهدندوة بهذه الروح وقال انه كفيل بارضاء أهل القتلى من قبيلته فلا ثأر ولا عار ولا مطالبة بالديات ما دام التحدى من جانبهم هم .. وانتهى الأمر بالصلح . ومكث زعيم الهدندوة ثلاثة أيام أخرى بعد تسوية هذا الحادث فى كرم ديار الحمران .

ولقد شغلت هذه الحوادث المحلق زمنا طويلا ، لم يكن يرى فيها تاجوج الا فى الفينة بعد الفينة وفى مناسبات عارضة كأن يدخل على عمه لأمر من الأمور فيجدها هناك ، أو تدخل هى عليهما وهما يتحدثان فى شان من الشئون ، حتى لم يعد المحلق يفكر الا فيها وحتى رأى أن الحياة لا تصلح بدونها وعليه أن يصارح عمه بحقيقة ما يعتمل فى نفسه ... فيمم نحو دار عمه ذات صباح فاذا به يشرب قهوته وتاجوج جالسة أمامه على حصير من خوص الدوم تصب اليه القهوة وتتحدث اليه ... فلما دخل المحلق تنحت عن الحصير لابن عمها ثم انسحبت الى منازل الحريم .. وأدرك الشيخ من ملامح المحلق أن أمرا ذا بال شغله فقال له كأنما يمهد له الحديث :.

ـ ماذا كنت تفعل اليوم ؟

ـ حاولت ان اروح عن نفسى بأن أسير قليلاً فى الغابة ..

ثم أخذ رشفة من فنجانه وتابع حديثه قائلا :

ـ لقد جئتك يا عمى فى أمر أريد ان أعلم رأيك فيه .

ـ حسنا يا بنى ، وما عساه يكون .

ـ انى أطلب الزواج من تاجوج .

وأطرق الشيخ راسه قليلا ، ثم رفعها الى السماء وقال :

ـ أنت كفء لها ، أنت ابن عمها ، وأنت بطل وفارس، وفيك كل الصفات الخيرة ، فكلاكما للآخر ، وسأتحدث لوالدتها هذه الأمسية فى ذلك الشأن ، على انى أحب أن أعلم متى تريد أن يتم هذا الزواج .

ـ أرجو أن يتم فى الأسبوع المقبل .

ـ حسنا ، فليس ينقصها شىء من الاستعداد للزواج .

وخرج المحلق من عند عمه وهو يكاد يطير فرحا .

وما لبث أن خرج مع فريق من قبيلته لصيد بعض الحيوان ويجمع ما تصل اليه يداه من سن الفيل أو الخرتيت أو ريش النعام ، ثم ذهب ليستبدلها من تاجر الزينة ، فحصل منه على صناديق محلاة ومزخرفة ووسائد من الأبنوس ومباخر من الفضة محكمة الصنع حملها كلها الى منزل تاجوج مع الجهاز ، وشملت القبيلة كلها موجة من الفرح والغبطة .

وعاش المحلق مع زوجته عيشة هنيئة هادئة ، ووجد فيها المرأة الحنون الرقيقة ، ووجدت فيه الرجل الشهم المحب . وساعدت الظروف فسعدت القبيلة واخضرت مراعيها ، وكثرت مواشيها .

وسافر المحلق ذات مرة الى الجنوب لبعض شئونه وطالت غيبته أكثر من كل مرة ولبث بضعة أشهر بعيدا عن تاجوج فازداد شوقه اليها وهيامه بها ، فما كادت تنتهى أعماله حتى عاد مسرعا الى ابنة عمه ، وبعد أن انفضت جموع المرحبين بعودته انفرد بزوجه واستلقى على فراشه يتحدث اليها عما لقيه فى أسفاره وما أحضر لها من هدايا ويسألها عن اخبار العشيرة ، السار منها والمحزن ، ثم أخذ يبثها هيامه وشوقه ، وكان يبدو عليه الاعياء الشديد ، فأخذت تدلك له جسده ، وما لبث أن راح فى سبات عميق ، وأمضى اليوم التالى فى المرور على أصدقائه ، وفى الليل أتوا هم لزيارته ، فلما كان الليل ، وكانت الليلة من ليالى الصيف المقمرة ، أراد أن يحقق فكرة طالما راودته وهو بعيد عنها أثناء سفره وحاول عبثا أن يطردها ، ولكنها كانت تلح عليه من جديد .

وقد ظن فترة من الزمان أنه تغلب على هذا الخاطر ، لكنه ما عاد الى تاجوج ورأى جمالها حتى عاودته الرغبة ليتمتع بمشهد لا يتاح له أن يراه الا على مهل وتان : أن تتجرد تاجوج من ملابسها وتمشى أمامه عارية بجسدها الناعم البض فى ضوء القمر الساحر . فيدقق النظر فى فتنتها ويمتع النظر برؤية الجمال الذى طالما اشتاق اليه وحلم به أيام سفره بعيدا عنها . واستمعت تاجوج الى هذا المطلب الغريب ، وعجبت كيف يطلب منها زوجها ذلك وهى بين يديه كلما أراد ، وأحست أنه يهين المرأة فيها

بهذا الطلب ، وانه يريد أن يتمتع بها كما يتمتع سيد بجاريته وأن فى مشيتها أمامه متجـــردة اذلالا لأنوثتها واهانة لكرامتها . وأسرت فى نفسها ما أثاره فيها المحلق من حفيظة عليه ، ورأت أن تســاوم مساومة تحصل بعدها على حريتها ، فهى لن تبيع كرامتها رخيصة بلا مقابل ، فقالت له فى تهكم لا يدرى ما وراءه .

ــ فان نفذت لك رغبتها فما عساك تجزينى عن هذا الصنيع .

ــ لك ما تريدين .

ــ اما تزال مصمما على رغبتك .

ــ نعم .

ــ اليس من الخير أن تعدل عنها .

ــ لن أعدل ولن يضيرك هذا فى شيء .

ــ سأكون واثقة بأنك منفذ لى رغبتى ؟ .

ــ كما أقسمت لك ولست احنث بقسمى .

عندئذ وقفت تاجوج واخذت تتجرد من ملابسها قطعة قطعة ، حتى بدت مفاتنها وهى تمشى أمامه مقبلة مدبرة ، وهو مستمتع ذاهل عما حوله وعما يكمن له . فما انتهت لحظة النشوة والشهوة حتى طالبته بأن يفى بما وعد فيجيب لها ما تطلب .. ولم يكن طلبها الا .. الطلاق .. وصعق المحلق وحاول عبثا ان يثنيها عما تطلب واغراها بأن تتقدم اليه بطلبات أخرى الا هذا الطلب فما ازدادت الا تمسكا بما طلبت وتمسكا بوفائه بوعــده . واضطر المحلق أن يفى بوعده ويطلقها . ولكنه اتفق معها ــ اخفاء للفضيحة ــ بأن يكون سبب طلاقهما أمام الناس هــو

أتخاذه خليلة الى جانب تاجوج ، وأنه لم يعد زوجا أمينا .. وما لبث تاجوج أن انفلتت ميممة الى منزل والدتها ، وغادر المحلق المنزل أيضا الى منزله الذى كان يقيم فيه مع بقية أهله .

وهنا تبلغ المأساة قمتها ، فيهيم المحلق فى البرارى ، وهو يبكى فتاته فى أبيات من الشعر ويحاول عبثا أن ينساها بالرحيل عن الحى أو الاشتراك فى الصيد أو الاشتراك فى غارات الأعداء ، فما لبث أن تخلى عن مكانته التى كان يحتلها فى قبيلته ، فلم يعد فارسها ولا حاميها ، وكأنما الحب والبطولة رفيقان فاذا تخلى الحب عن البطل فقد تخلت عنه بطولته كذلك . وكأنما تاجوج تتحمل مسئولية سلب بطولة المحلق. وتجددتعرض قومها لهجمات الهدندوة . وهنا نلمح عمق الأدب الشعبى وكيف يربط بين سعادة الفرد وسعادة قومه .

اما تاجوج فقد تزوجت من تاجر من تجار القبيلة ، فجن جنون المحلق وراح يوالى البكاء والتشبب بها ويصيبه الاغماء بين الحين والحين لا يرافقه سوى خادمه الأمين سالم . حتى ساءت حاله ووصلت الى حد خطر ، ولم تعبأ تاجوج أن تعرف من أخباره شيئا حتى ألح عليها الأهل بأن تزوره وهو يعانى سكرات الموت ، فلما راته فى الرمق الأخير جزعت شد الجزع ، وراحت تناديه فلما سمع صوتها حاول أن يحدثها ولكنهما لم يتبادلا الا كلمات قلائل مات بعدها . فأصابها الحزن الشديد ورجعت مهمومة تبكى .

وعاد الهدندوة ينقضون اتفاقهم ويغيرون على بنى الحمران وقد أدركوا أن بطلها قد مات . فاشتد ساعدهم وهم يسلبون منهم كل يوم ويأسرون ، حتى وقعت

تاجوج ذات يوم من بين السبايا ، فاذا بها تصبح أسيرة ذليلة . وما لبثت تاجوج أن فتنت عرب الهدندوة بجمالها الرائع وقدها الممشوق وحلاوتها وعذوبتها فاختلفوا عمن تكون له ، وما لبث أن دب الشقاق بين أفراد القبيلة بسببها ، كل يريد أن تكون له وليست لغيره . وتحول الشقاق الى قتال ، واشتد القتال وكثرت حوادث الاغتيال بسبب تاجوج حتى قيل ان عرب الهدندوة الذين ماتوا بيد بعضهم بسبب تاجوج أكثر من هؤلاء الذين قتلهم بنو الحمران أثناء حروبهم معهم . وكأنما كان لجمال تاجوج من الأثر فى نفوس الأعداء ما كان لبطولة المحلق عشيقها وزوجها من قبل . وأخيرا رأى أحد القوم أنه لن يقضى على الفتنة الا بالقضاء على مصدرها ، على تاجوج نفسها . ففى ذات يوم سارع الى خيمتها يدعوها ، فلما أطلت طعنها طعنة كان فيها القضاء عليها . ويقال ان قبرها أصبح مزارا لأهل الهوى يحجون اليه من جهات متعددة ليذكروا قصة الحب والبطولة والجمال التى لم تستطع أن تدفع الشقاء عن أصحابها .

ثمن الحرية أو مونسيرا

مسرحية للكاتب الفرنسي عمانوئيل روبلس

فى عام ١٨١٢ كان الارهاب الأسبانى فى فنزويلا بأمريكا الجنوبية على أشده .. فكان من الضباط الأسبان من يتلذذ بتقطيع أطراف امرأة ، ومنهم من كان يحتفظ لنفسه بلذة بقربطون الحبالى ، ويرسل لأصدقائه أكياسا مليئة بالأيدى المقطعة ، ومنهم من كان يتسلى بفتق عيون أعدائه بالمبضع . أما الراهب «أوزوبيودو كورنيل» فكان يدعو الى ابادة جميع الفنزويليين الذين تزيد سنهم على السابعة . وقد أثارت هذه الوحشية ثائرة « مونسيرا » وهو احد هؤلاء الضباط الأسبان الذى لم يوافق على ما يقترفه قومه من فظائع .

وذات مساء كاد الضباط المتوحشون أن يقبضوا على القائد الفنزويلى الثائر بوليفار ، بعد أن عرفوا مخبأه . فاجتمعوا يتدارسون خطة الأسر التى أعدها الملازم أول ايزكياردو لاتمامها فى الصباح . ولكن بعد ساعتين من هذا الاجتماع تسلل الضابط « مونسيرا » وركب حصانه فى ظلمة الليل الى حيث يختبىء الثائر

الفنزويلى ، واخبره بالخطة المبيتة ضدد ، فما كان من بوليفار الا أن ترك مخبـــأه ... رغم أنه كان مريضـــا تنهكه الحمى . وعندما اقبل الجنود الأسبان فى الصباح وفوجئوا بفراره ذبحوا جميع أفراد الأسرة والخدم ... وحين اكتسحت النيران المكان خرج زنجى كاد من الخوف ان يجن .. كان قد اختبأ تحت القش . ولم يجـدوا جهدا لحمله على سرد القصة بينما كان احد الجنود يساعده على الاعتراف بأن يلامس أسفل بطنه بنقرات من حربته . كما اعترف على مونسيرا الحوذى الذى كان قد سرج له حصانه .. وهكذا تم القبض على مونسيرا ، وكان قد عاد الى رياسة جيشه بعد أن اطمأن الى فرار بوليفار ..

ولمـا كان ايزكياردو يعرف أن مونسيرا انما فعل ذلك بدافع من ضميره الحساس وأن اية طريقة من طرق التعذيب الجسدية لن تحمله على الـكلام ، لهذا فقـد اختار له الطريقة التى راى انها كفيلة بأن تؤثر على ذلك الضمير .. فيعترف بالمكان الذى لجأ اليه بوليفار ، وهو أحد مكانين .. اما أن يقصد « بيوبلا » ليجمع شتات ثواره من جديد ، واما أن ينسحب حيث يقيم أصدقاؤه الانجليز فى « كوراساو » .

وأمر ايزكياردو أحد ضباطه قائلا : خذ معك عشرة رجال واهبط الى الساحة وعليك أن تقبض على الأشخاص الستة الأول الذين تلتقى بهم ، وأن تقودهم الى هنا ..

ــ الأشخاص الستة الأول ؟ ..

ــ أجل اسرع ...

ــ حسنا ..

ثم يشرح ايزيكاردو المســـألة الى مونسيرا قائلا : سيحجز ستة أشخاص هنا ، فى هذه القاعة .. معك .. أشخاص اخذوا بالمصادفة من الشارع . أبرياء يا مونسيرا .. رجال ونساء من هذا الشعب الذى تحبه أكثر مما تحب بلادك . فان لم تكشف بعد ساعة عن المكان الذى يختبىء فيه بوليفار فسوف يقتلون رميا بالرصاص ..

مونسيرا .. هذا مستحيل .. ايزيكاردو .. هــذا وحشى ..

وهكذا تنتهى مقدمة المسرحية لتبدأ المعركة الخارجية بين مونسيرا والأبرياء الستة الذين تتوقف حياتهم على اعترافه ، والمعركة النفسية فى ضمير مونسيرا ، بين التضـحية بمستقبل جميع الفنزويليين بالاعتراف على مخبأ ثائرهم وبين التضحية بستة أبرياء لا يد لهم فيما يحدث سوى مرورهم العارض المشئوم فى الخارج فى ذلك الوقت ..

اما الأشخاص الستة فهم .. خزاف فى الخمسين من عمره ، وبائع فى الخامسة والثلاثين ، وممثل فى الأربعين ، وأم لطفلين ، وريكاردو وهو شاب فى العشرين وايلينا وهى شابة فى الثامنة عشرة .. ولكل من هؤلاء ظروفه التى تدعوه أن يتشبث بالحياة وتدعو الحياة أن تتشبث به وسيكون مونسيرا مسئولا عن موتهم اذا هو لم يعترف عن مخبأ بوليفار ..

ولم يكن من بين هؤلاء الرهائن الستة من هو أسبانى الا الممثل ، أما البقية .. فمن الوطنيين الفينزويليين ..
ويتوسل أربعة من الستة الى مونسيرا أن ينقذهم من هذا البلاء الذى حل بهم فجأة من غير ذنب جنوه ..

الخزاف (مغتاظا) : اترانا لم نفهم ما قاله الضابط ؟ .. اما أن تسلم بوليفار ، واما أن نرمى جميعا بالرصاص . أليس كذلك ؟ ..

ان لى خمسة اولاد .. لم يبلغ اكبرهم الثانية عشرة ، وانا أربيهم بصنع جرارى وبيعها بنفسى وأنت لن تعولهم بعدى ... واذن ..

مونسيرا (متحمسا) : هذا صحيح ، ان هذا كله صحيح . ان لكل منكم حقيقته التى يدافع عنها ، وحياته وما هو أهم من حياته ، ولكن بوليفار يظل بعد ذلك الأمل الوحيد ، الأمل الأخير للفينزويليين بأن يتحرروا من الأسبان . فان انا سلمت بوليفار .. فانى لا أسلمه وحده ، بل أسلم معه الحرية وحياة بضعة ملايين من البشر ..

الخزاف : ستعترف لنا .. نعم ام لا .. أين خبأت بوليفار ؟ ..

مونسيرا : ان الأسبانيين لا يعتبرونكم من البشر ، بل من الحيوانات .. من الكائنات التى يمكن .. بل يجب ابادتها .. هذه الفظائع كلها .. وهذه الالوان الوحشية جديرة بأن تثيركم .. الا يمكن أن تكفى لحملكم على النهوض ضد هؤلاء الوحوش .. حتى آخر تضحية ..

الممثل : اسمع .. انه لا يمكنك ان تفعل ذلك ، لا تستطيع أن تقتل ستة أشخاص لتنقذ شخصا واحدا ..

مونسيرا : ولكن افهموا .. انا ادرك جيدا انه يشق عليكم أن تفهموا .. ليست هى قضية حياة ستة

اشخاص مقابل حياة شخص واحد . وانما مقابل الحرية .. ومقابل حياة الوف المساكين ..

ويمضى الحوار الرائع على هذا النحو حتى يضج الأبرياء من توسلاتهم ، ويثوروا ويحاولوا الاعتداء على مونسيرا وقتله حيث أنه بموته لن يطالبهم أحد بالموت .. لأن مونسيرا ما عاد قادرا على الاعتراف ..

ولكن يتدخل احد رجال الحرس الأسبانى قائلا : لا تحاولوا أن تقتلوه .. فقتله متعة نحتفظ بها لأنفسنا ..

وعبثا يحاول الأبرياء حمل مونسيرا على الاعتراف حتى تنتهى الساعة المحددة لهم .. ويقبل ايزكياردو لينفذ احكام الاعدام فى الأبرياء الستة واحدا بعد الآخر . وبذلك تدخل المعركة فى صورة أكثر جدية وخطورة .. ذلك أن كلا من الجانبين يزداد تصلبا وعنادا ولا أمل فى ان يلتقيا ..

ويلتفت ايزكياردو فجأة الى الفتاة الهندية ايلينا والى جمالها فيعلن انه سيبقيها ليتمتع بها اذا ما حل المساء ، ولكن الفتاة تطلب أن ترمى بالرصاص مع الآخرين . أما ايزكياردو فيقرر أن تنفذ أحكام الاعدام فى هؤلاء الأبرياء واحدا بعد الآخر ـ بعد اعفاء ايلينا ـ على أن تكون الأم آخرهم .. عسى أن تتحطم أعصاب مونسيرا وهو يراهم يختفون أمامه واحدا بعد الآخر .

ويبدأ التنفيذ بالخزاف ، وهو خزاف مشهور فى البلاد لأنه يصنع جرارا على شكل حيوانات وحين يراق الماء من هذه الجرار فانها تقلد أصوات الحيوانات التي تمثلها .. كما أن له خمسة أولاد ..

وعندما يتوسل الخزاف الى ايزكياردو – بعد أن فشل فى اقناع مونسيرا – بألا يعدمه الحياة يرد عليه قائلا :

– ليس صحيحا أن من الضرورى لمن يموت ان يكون قد ارتكب جريمة .. ثم انه حين يموت رجل شجاع ميتة بايدة بسبب مرض من الأمراض .. فانك لا تجد احدا يفكر فى الاحتجاج على ارادة الله ..

وهكذا ينفذ حكم الاعدام فى الخزاف المسكين ويتلوه البائع ، وهو رجل سعيد بثروته ، وبزوجته ، ويوضح ايزكياردو لمونسيرا ذلك قائلا :

– هل سمعت يا مونسيرا ؟ .. هذا رجل سعيد . هذا رجل ممتلىء حبا وغنى وشبابا .. ان له من الحياة خير الثمار وأجمل الزهور .. وهو يتمنى أن يدوم هذا . أليس كذلك ؟ .

اتراك ستذكر ذلك يا مونسيرا ؟ .. اترى حياة تاجر نشيط لا تهمك الا قليلا ؟ ..

وبظل مونسيرا على تشبثه . فيقاد البائع الى حيث ينفذ فيه ثانى حكم بالاعدام ..

ويتلوه الممثل ، وهو أسبانى وفد الى فينزويلا مع احدى الفرق التمثيلية ، وقد شاهده ايزكياردو يمثل ذات مرة دورا لأحد الشجعان وهو يصعد الى المقصلة .. فيطلب منه تمثيل هذا الدور مرة ثانية .. وبعد تردد يلقى الممثل دوره حتى يصل الى قوله .. ينبغى أن نصعد الى الله طاهرة قلوبنا من كل لطخة. فيشرح له ابزكياردو ذلك بقوله : ان الله يأمر بأن يموت المرء من غير أن يلعن ، وأن يعفو عن جلاده .

وهنـــا يتدخل الأب كورنيل فى الحـــديث قائلا للممثل :

كلا .. ان الله لا يأمر فقط بأن نعفو عن جلادينا .. بل يأمر بأن نحبهم أيضا .. ويضرب لذلك مثلا بالمسيح الذى كان الحب يملأ قلبه وهو ينتظر تعذيبه ..

ويمضى الحوار ليبين فى سخرية مريرة كيف يمكن لبعض رجال الدين أن يؤيدوا الطغيـــان . فيمضى الأب كورنيل قائلا للممثل البرىء وهو على وشك أن يعدم : لا تفكر فى نفسك . بل فى الذين سيهلكون جميعا . ينبغى الا تندم على هذه الحياة ، ولا على هذا الجسد الفانى ، وعلى كنوز العالم المزيفة .. من أجل هذا ينبغى أن تموت وأن تنادى بأن البشر الذين يقتلونك هم اخوتك وأن تحبهم من أعماق الروح ..

الممثل : كلا .. كلا يا أبت .. انك تناصر هـــذا الرجل الذى يقتلنا .. ان الله ليس هنا ، وأنت لا تخدم الله . ان واجبك ... باسم اله العدالة والحب هو أن تدافع عنا . ان المســـاومة التى نحن ضحيتها اهانة للرب ..

الأب كورنيل : ان المسيحى جندى من جنود الرب . والملك يستمد سلطته من سلطة الله القدير . ان بوليفار قد عصى جلالته فهو اذن عدو الله . حتى ان واجب المسيحى أن يضحى بكل شىء ، فيتم أسر بوليفار ، ومن أجل هذا يقتضى مجد الرب تعالى ان تضحى بحياتك هذا المساء فى سبيل القبض على ذلك الشقى فعليك الا تخضع وتستسلم فحسب ، بل أن تسعد بهذا المصير .

وهنا ينتبه ايزكياردو فجأة الى أنه اذا كان من واجب

المثل أن يضحى بنفسه وهو فرح فهو لا يرى سببا يدعو مونسيرا ـ الذى يسمع كل هذا الحوار ـ الى الاشفاق عليه وانقاذه من الموت .. فيرد على الآب كورنيل قائلا : ولكن هذا الشـــقى كان يتهمنى بالاشتراك فى الجرم .

ايزكياردو (مقاطعا) : نعم هذا شىء آخر .. ان كلا منكم يدخل الله فى حججه .. وحجة المثل منطقية يا أبت ، وحجتك المعارضة منطقية هى أيضا . ولكنكما لن تتفاهما ابدا لانكما تستعملان مزيدا من المنطق فى مسألة يبدو الله فيها عنصرا متحولا الى ما لا حد له . ان اله المثل ساسادو اله الحب والعطف ، أما الهك يا أبت فهو اله غيور على سلطته ومجده . وهو هذا الذى ندعوه الى الحرب الى جانبنا . بحيث أنك ان لم تكن شريكا لنا فى العمل .. فأنت على الأقل حليفنا ..

وهكذا ينتهى ذلك الحوار ليلقى المثل مصير الأبرياء السابقين ..

ويأتى دور الشـــاب ريكاردو ، وهو مثل ايلينا .. يرحب بالموت فى سبيل وطنه وفى سبيل قائد ثورته .. فلم يحاول أن يستعطف مونسيرا لانقاذه بل يذهب لينفذ فيه حكم الاعدام وهو يقول : اننى أعرف لماذا أموت ..

ويفزع مونسيرا من هذه الجرائم المتتالية .. عندما يقبل ضـــابط يتحدث كيف استقبل ريكاردو الموت بشجاعة وكيف رفض أن تعصب عيناه . ويأتى بعد ذلك دور الأم . وكان عندما قبض عليها ، قد خرجت من بيتها لتبتاع شيئا ثم تعود الى طفليها اللذين أغلقت عليهما الباب ..

ايزاكيادور : لا تنس ان لها ولدين .. انهما محجور عليهما فى بيتها .. فاذا هى ماتت فسيموتار جوعا ، وسيكون موتا بطيئـــا فظيعا ، يعانيه هذان الصبيان اللذان يملك أمثالهما الحياة كلها (مخاطبا الأم) استعدى ايتها المراة .. انها ساعتك ..

وتتوسل الأم الى مونسيرا وتبكى فلا يلبث ان يضعف ويلين فيرفع يده قائلا بصوت ضعيف : انه بيت منعزل على بعد خمسمائة متر من طريق يؤدى ..

وهنا نتدخل ايلينا التى أبقاها ايزكياردو لنفسه فى الليل .. فتصيح فى مونسيرا قائلة بشجاعة :

كلا .. اخرس .. اســـتعد رباطة جأشك ، انه لا مجال بعد لأن تكون جبانا .. لقد سبق أن ضحيت بأربعة منا . لقد فات الأوان . أصمت ..

الأب كورنيل (غاضبا) : الـكلبة .. خـذوها .. وأسرعوا ..

وهكذا تؤخذ ايلينا لتعدم ، ويستعيد مونسيرا رباطة جأشه فيتوقف عن الاعتراف ، فما تلبث الأم أن تلقى مصيرها ..

ويبدأ النقاش بين مونسيرا وايزكياردو ويحاول أن يهون اعدامه لستة أبرياء قائلا :

– فى هذه الساعة يموت على سطح الأرض كلها حشد من الأبرياء ميتة بليدة بسبب حادث أو مرض ، فهل يهزك ذلك كثيرا ؟ لا ..

ثم يحـــاول أن يبين سخف تشبث مونسيرا وعناده قائلا : ان بوليفار مريض وربما يكون هذه الليلة بالذات

قد مات .. ثم ان جنودى فى اثره ، وربما اسر هذه الليلة ؛ ولئن استطاع أن يدرك الليلة « بيوبلا » وان يجمع انصاره فهو قد لا يهزمنا .. ومعنى هذا أن بولبفار اذا مات أو أسر أو قتل فلن يكون هذا كله الا حكاية دامية . ولقد كان جميع رهائن الساعة مقتنعين بأنهم انما يقتلون مجانا . ان هناك اناسا لا عزة لهم . يؤثرون أن يعيشوا تحت سيطرتنا على أن يتلقوا اثنتى عشر رصاصة فى صدورهم . انهم يفضلون أن يعيشوا عيشة ذليلة تحت نعالنا على أن يموتوا ميتة مجيدة من أجل الحرية ..

مونسيرا : ولكن قبلت رهينتان من مجموع ست رهائن ان يموتا من أجل هذا الألم الذى تحتقره . فلو طبقنا هذه النسبة على شعب هذه البلاد بأكمله ، لبلغ الرقم مليونى نسمة يقبلون هذه الميتة من مجموع الملايين الستة التى يتألف منها .. ألا يبدو ذلك عظيما ؟ .. الا يبدو لك مدهشا ؟ ..

وهنا ينادى ايزكياردو على أحد ضباطه طالبا منه أن يستدعى ستة أبرياء جدد على أن تكون المهلة التى أمامهم هذه المرة نصف ساعة فقط .

مونسيرا : انك لن تفعل ذلك فأنا لن أطيق .. لن أطيق ..

ايزكياردو (يقترب منه بقسوة) : واذا لم تنجح الرهائن الجديدة فى حملك على الاعتراف فسآمر باطلاق الرصاص عليها تحت ناظريك .. ثم استقدم ست رهائن أخرى وبعدها ستا أخرى حتى تدرك أخيرا جنونك ..

ويجن جنون مونسيرا ويبدأ من جديد فى الاعتراف ، ولكن .. ولكن قبل أن يمضى فى اعترافه يقبل أحد الضباط معلنا نجاح الثائر الفينزويلى بوليفار من الوصول الى بيوبلا حيث يجمع فيها شمل أنصاره من جديد .. ولا يملك مونسيرا الا أن يعبر عن فرحه وهو يتخيل أجراس بيوبلا تدق والنساء تزغردن والرجال يتسلحون بأسلحتهم . وينظر ايزكياردو الى مونسيرا قبل اعدامه وهو يقول له :

لقد انتهى كل شىء يا مونسيرا ، فيرد عليه مونسيرا فى صيحة : كلا بل سيبدأ كل شىء .

وعندما يخرج مونسيرا ليلقى حتفه يتوجه الأب كورنيل الى ايزكياردو متسائلا : عم كان يحدثك مونسيرا اخيرا .. هل اظهر ندما ؟ ..

ايزكياردو (يحدق فيه ثم يقول له ببسمة غريبة) : كلا .. كان يحدثنى فحسب عن فرح الآخرين ..

الساعة الخامسة والعشرون

لكونستانتان جيورجيو

« ان الرجال الذين لا زالوا على انسانيتهم ، مرغمون على الاختفاء »

« كونستانتان فرجيل جيورجيو مؤلف هذا الكتاب رومانى الجنسية ، لكن الكتاب لم يظهر أبدا باللغة الرومانية لأسباب سياسية واضحة . وفى مقدمة الترجمة الفرنسية له ـ وهى أول ترجمة ظهرت للكتاب ـ يقول الفيلسوف الوجودى جابريل مارسيل : ان هذا الكتاب لا يمكن أن يستغله أى حزب للدعاية ، وهذا أثمن ما فيه . ويتضح ذلك عندما نعلم ان أحد أبطال القصة يقول ان آخر ما وصل اليه الانسان فى الحضارة الأوروبية هو أن يختار بين سجنين : السجن الروسى أو السجن الأمريكى .

ولا يعتبر المؤلف الحرب بين الكتلتين الشرقية والغربية حربا بين مذهبين ، بل هى حرب داخلية فى نظام واحد ، ذلك أن روسيا ـ بعد الثورة الاشتراكية ـ ليست الا الفرع الأكثر تقدما من فروع الثورة الغربية فى الصناعة

الآلية ، ويستوى الروس والأمريكان — لدي الكاتب — فى أنهم أهدروا قيمة الفرد ولم يعودوا يتعاملون الا مع مجموعات بطريقة آلية .

والواقع اننا يمكن أن نعتبر الكاتب من ناحية امتدادا لآراء الفيلسوف الالمانى اشبنجلر الذى أعلن انحلال الحضارة الغربية ، كما اعلن عن خلاص يأتى من الشرق ، ومن ناحية أخرى فاننا يمكن أن نضعه مع الوجوديين الذين يعطون الفرد قيمة أكثر مما للمجموع . ولعله لهذا السبب كان جبريل مارسيل هو صاحب المقدمة فى الترجمة الفرنسية .

ومع أن الكاتب متشائم الى درجة مفزعة ، ومع انه لم يستطع أن يقف موقفا جدليا أمام التفاعل الموجود بين الفرد والجماعة فيعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، الا أنه على كل مثقف أن يقرأ هذا الكتاب — فأنا لا ألخصه ولكنى أثير الاهتمام به فقط لأنه فى أكثر من خمسمائة صفحة فى كل من الترجمتين الفرنسية والعربية — فهو يثير مجموعة من القضايا والأسئلة على كل منا أن يجيب عليها ..

ان قراءة هذا الكتاب أمر ضرورى فى الوقت الذى تبحث فيه مصر — والشرق العربى — عن شخصيتها بين مختلف التيارات ..

***

— الساعة الخامسة والعشرون هى اللحظة التى تكون فيها كل محاولة للانقاذ عديمة الجدوى ، بل ان قيام مسيح جديد يخلص العالم لن يجدى فيها . انها ليست الساعة الأخيرة ، بل هى ساعة بعد الساعة الأخيرة . ساعة المجتمع الغربى . انها الساعة الحاضرة

.. الساعة الدقيقة المضبوطة .

كانت هذه كلمات تريان بن القس كوروجا راعي الكنيسة الأرثوذكسية في قرية فانتانا برومانيا ، وتريان هو أحد أشخاص قصة الساعة الخامسة والعشرون ، وظيفته مؤلف روائي . وهكذا استطاع المؤلف الحقيقي أن يختفي وراء شخصية تريان وأن يعبر به عن آرائه .

وبعد تناول العشاء سأل القس كوروجا ابنه عن مشاريعه الأدبية فقال : ان حدثا خطيرا قد وقع حولنا ، انني أشعر بهذا الحدث الهائل شعورا لا يضاهيه الا احساس الجرذان الذي يدعوهم الى هجر مركب على وشك الغرق .

وكان جورج داميان ــ وكيل النيابة ــ جالسا يستمع الى هذا الحديث فسأل قائلا : وما هو ذلك الخطر الذي يتهددنا ؟ .

اجاب تريان كوروجا : انه الآلات ، هذا الرقيق الفني ، هذا الخادم الذي يقدم لنا يوميا ألف خدمة ولا شك ان هناك عشرات المليارات من هؤلاء العبيد الفنيين وحوالي مليارين من البشر ونحن الآن مرغمون على معرفة عادات هؤلاء العبيد وقوانينهم لنستطيع استخدامهم . وجرت العادة أنه اذا كان المحتل أقل عددا من الأمة التي يحتلها فانه مرغم على اعتناق عادات تلك الأمة يتعلم لغتها بسبب المنفعة . وهذا ما نحن مرغمون عليه أمام الآلات رغم أننا المحتلون ..

وهكذا فاننا سنتخلى يوما عن صفاتنا الانسانية وقوانيننا الخاصة تدريجيا ونعتنق أسلوب الحياة المطبق على عبيدنا الفنيين ، وستكون دلالة ذلك هو التخلي

عن الانسانية واحتقار الكائن البشرى . ان الرجال سيحاكمون آليا ويقتلون آليا . لن يكون للمرء الحق فى الحياة بل سيعامل كأنه مكبس أو آلة ، هل رأيت فى حياتك مكبسا يعيش حياة خاصة ؟ .

وسيصبح الرجل مغلولا خلال سنين طويلة فى المجتمع الآلى ، لكنه لن يموت فى الأغلال ، ان المجتمع الآلى يستطيع ابداع الرفاهية ، لكنه لا يستطيع خلق الفكر . وبدون الفكر لا توجد عبقرية . وان مجتمعا محروما من العباقرة مقضى عليه بالفناء .

ان هذا الانهيار فى المجتمع الآلى سيعقبه اعتراف بالمواهب الانسانية والعقلية . وسيشرق هذا النور العظيم من الشرق ، من آسيا . لكن ليس من روسيا . أن الروس قد انحنوا خاضعين أمام نور الغرب الكهربائى فلن يبلغوا تلك المرحلة .

لقد قمت مرة بجولة بحرية فى جوف غواصة ، ومكثت تحت الماء حوالى الف ساعة . أن فى الغواصات جهازا خاصة ينبىء بالوقت المعين اللازم لتجديد الهواء . أما من قبل فان الغواصات لم تكن مزودة بهذا الجهاز ، لذلك كان البحارة يصحبون معهم عددا من الأرانب البيضاء الى جوف الغواصة ، فاذا تسمم الهواء ماتت الأرانب فيعرف أن لديهم خمس ساعات قبل أن يسقطوا بدورهم فريسة للاختناق ، اما بالصعود الى سطح الماء باذلين جهد اليائس ، واما بالبقاء فى الأعماق والموت . وقد جرت العادة اثر اتخاذ القرار الثانى ، أن يقتل البحارة بعضهم بعضا بطلقات المسدسات .

انها موهبة نملكها نحن - أنا والأرانب البيضاء - فنشعر بدنو الخطر قبل أن يشعر به البشر بست ساعات .. ان رجال الفواصة يناضلون ويقاومون الجو المسموم ، انهم كانوا يعيشون ست ساعات بعد موت الأرانب البيضاء ، لكنني أعرف أن كل شيء انتهى .

ان المجتمع الحاضر يملك من الوسائل للاحتفاظ بالرقيق ما لم يملكه اليونان من قبل ، انني لا أفكر فقط في الرشاشات وحواجز الأسلاك الشائكة التي يمر فيها تيار كهربائي صاعق ، بل أفكر كذلك في الأساليب التعسفية التي سوف يعمد اليها النظام البيروقراطي للرقابة على الكائن الحي ، وأقصد بطاقات التموين واذن رجال الشرطة للحصول على سرير في الفندق أو ركوب السيارة أو التنزه في الشارع أو ابدال المسكن . ان اليونان والمصريين ما كانوا ليكبلوا أيدي عبيدهم وأرجلهم بالحديد لو كانت لديهم الوسائل التي يملكها مجتمعنا المتمدين ..

ان روايتي المقبلة ستكون كتابا حقيقيا لا يمت الى الأدب الا من حيث الأسلوب فقط ، اما الأشخاص فانني سأنتقيهم من الحياة الحقيقية . سأنتقي بين مليارين من البشر عشرة أعرفهم ، سأعني بايراد حوادث لا يمكن للمخلوق البشري أن ينجو من الوقوع في مثلها . سأنتقي من بين مليارين من البشر عشرة أعرفهم أكثر من سواهم ، أسرة كاملة ، أسرتي مثلا : أبي وأمي وأنا وأنت وخدم أبي وبعض الأصدقاء والجيران .

وسأل جورج داميان - وكيل النيابة - قائلا : أتعتقد

انني سأحيا فترات مفجعة ؟ أنت تعرف أنني أعيش حياة برجوازية ، لا يمكن أن يعنى بها الجمهور .

ـ يا صديقي العجوز ، ان معظم الناس على هذه الأرض ليسوا مغامرين ، مع ذلك فانهم جميعا يمرون احيانا فى مغامرات ، يعجز الكتاب العاطفيون عن تخيلها .

وكان ايوهان موريتز هو أحد خدم القس كوروجا ، وكانت زوجته سوزانا على جانب عظيم من الجمال حتى ان رئيس شرطة القرية راودها عن نفسها ولكن عبثا . واخيرا سنحت له الفرصة ، فقد تلقى أمرا باعتقال اليهود والمشبوهين فى القرية لارسالهم الى معسكرات العمل ـ وكان ذلك فى بدء نشوب الحرب العالمية الثانية ـ فاستدعى رئيس الشرطة ايوهان موريتز وأرسله باعتبارها مشبوها ومعه اليهودى ماركو جولدنبرج ابن صاحب الحانة . غير أن اسم ايوهان موريتز سجل خطأ مع اليهود فاعتبر يهوديا . وحاول عبثا أن يثبت بعد ذلك أنه مسيحى أرثوذكسى وأرغمت زوجته سوزانا على تطليقه والا صادرت السلطات منزلها باعتبارها زوجة يهودى . وأبلغ موريتز هذا النبأ بغير أن يحاط علما بظروفه مما أحزنه حزنا شديدا ، ثم نقل للعمل على الحدود الرومانية الهنغارية ، فلم تكن أمامه وسيلة الا الفرار الى هنغاريا مع بعض اليهود الذين كان من بينهم طبيب يدعى ابراموفيس .

وفى هنغاريا استطاع الطبيب ابراموفيس واليهود الآخرون أن يهاجروا الى أمريكا بينما قبض على ايوهان موريتز بتهمة التجسس ، وحاول عبثا أن يشرح قصته للسلطات الهنغارية ولكنهم عذبوه عذابا أليما أملا فى الحصول

على معلومات منه ، ولما يئسوا اودعوه احد معسكرات الاعتقال .

وحدث ان طلب الرايخ الألمانى خمسين الف عامل هنغارى لنقص فى أيدى الألمان العاملة ؛ وكان هذا الطلب شبه أمر موجه الى هنغاريا ، فاحتالت الحكومة الهنغارية على هذا الطلب الذى لا تستطيع رفضه ، فلم ترسل أبناء وطنها ليعملوا شبه مسخرين فى المانيا النازية ، بل لجأت الى المعتقلين تنزع عنهم ما يثبت جنسيتهم وأرسلتهم — ومن بينهم ايوهان مورتيز — باعتبارهم عمالا هنغاريين .

وعندما وصل القطار الذى يقل هؤلاء العمال الهنغاريين المزعومين الى حدود المانيا وجد ايوهان موريتز أن مقصورته قد كتب عليها بالطباشير الأبيض هذه العبارة « العمال الهنغاريون يحيون زملاءهم عمال الرايخ الألمانى الأكبر » وقرأ على المقصورة التالية « العمال الهنغاريون يعملون لنصرة المحور » (أى المانيا وايطاليا واليابان أثناء الحرب العالمية الثانية) .

ولبث القطار فى الحقول الى المساء ، وعند مغيب الشمس انتشر الحراس فى الحقول وراحوا يقطفون أزهارا . ولم ير موريتز من قبل جنودا مسلحين يقطفون الأزهار تحت امرة ضابط يشاركهم مهمتهم . فلما فرغوا عادوا وفى يد كل منهم باقة جميلة ثم زينوا العربات بالأوراق الخضراء والحشائش وأكاليل الزهور والأغصان وكأنهم يقيمون حفلة زفاف للقطار الذى سيدخل الحدود الألمانية .

وفى ألمانيا اشتغل موريتز عاملا فى مصنع للأزرار .

وكان عمله ان يلتقط الصناديق التى تأتيه بطريقة آلية على قضيب حديدى ليضعها على عربة قريبة منه . وعندما تمتلىء العربة تمضى من تلقاء نفسها لتترك مكانا لعربة أخرى فارغة تأتى بشكل آلى ، ولا يستطيع العامل أن يتوقف عن العمل لحظة والا تكدست الصناديق أمامه واضطرب العمل واتضح اهماله وكسله .

قال له الموظف وهو يشرح له عمله .

ــ ان الانسان الآلى لا يمكنه أن يتبع رغبة الانسان . فعليك اذن أن تساير رغباته . وتوازن حركاتك مع حركاته . ان هذا طبيعى جدا لأنه هو العامل الكامل .. أما أنت فانك لست كاملا . لا يستطيع الانسان ، أى انسان ، أن يكون عاملا كاملا . أما الآلات فانها وحدها تستطيع أن تكون كذلك . ينبغى أن تمعن النظر فيها لتتعلم كيفية العمل . هل فهمت ؟ ان الآلات تعلمك الترتيب والنظام والكمال . فاذا حاكيتها غدوت عاملا من الدرجة الأولى .

وفى المصنع أصبح ايوهان موريتز صديقا لأسير فرنسى اسمه جوزيف . ولم يستمر عمل موريتز فى هذا المصنع ، فقد طلبوه ليعمل مترجما للغات البلقانية فى هيئة أركان العامة والمؤسسات القومية للدراسات العنصرية . وهناك اكتشف أحد علماء الأجناس الألمان أن ايوهان موريتز من عنصر آرى صميم . وكان دليله على ذلك أنفه وجبهته وعينيه وذقنه .. وهكذا أصبح موريتز جنديا فى الجيش الألمانى يحرس صديقه فى الأسر جوزيف وأربعة آخرين .

وفى نفس ذلك الوقت كان رئيس شرطة قرية

فانتانا فى رومانيا قد تلقى برقية عن فرار ايوهان موريتز من معسكر اعتقاله على الحدود الرومانية الهنغاريه . والمطلوب منه البحث عنه علّه يكون قد عاد الى قريته . فاستدعى رئيس الشرطة أم موريتز واراها المستند الرسمى الصادر من السلطات والتى تؤكد أن ابنها يهودى . فصرخت أمه قائلة : لقد أنجبت ايوهان مع مع زوجى وليس مع السلطات . أنا أعرف انه ليس يهوديا .

ولكن رئيس الشرطة رد قائلا : ان وزارة الداخلية تؤكد حرفيا فى هذه النشرة ان موريتز يهودى .

فردت الأم قائلة : الحس هذه النشرة أنت ورؤساؤك .

أما ايوهان موريتز فتزوج من المانية وانجب منها طفلا . وكانت أنباء انتصار الحلفاء تتزايد يوما عن يوم ، وبدأ الأسير الفرنسى جوزيف يغرى موريتز حارسه وزميله فى الأسر ــ على الهروب معا لأن هذا من شانه الا يجعله من مجرمى الحرب . وعندما أعلن موريتز لزوجته الألمانية احتمال انهزام المانيا نفت ذلك بشدة وقالت انها فى هذه الحالة ستقتل نفسها وولدها . اما موريتز فهرب مع أسراه آملا فى العودة مع القوات الحليفة لانقاذ اسرته قبل أن تنفذ زوجته تهديداتها .

أما تريان بن القس كوروجا فكان قد عين فى أحد الوظائف الدبلوماسية خارج رومانيا ، ومن هناك كتب الى والده يقول :

ان روايتى الجديدة تتقدم فى طريق نهايتها . لقد وصلت الى الفصل الرابع ، الى الساعة الثالثة بعد

موت الأرانب البيضاء . ان العبيد الآليين يدمرون كل شيء فى طريقهم ، والأنوار تطفأ بعضها فى اثر بعض والرجال هائمون فى ظلمة قريبة من ظلمة الموت .

وكان تاريخ هذا الخطـــاب هو ٢٠ اغسطس عام ١٩٤٤ ، وكانت هذه هى نهـــاية الفصل الثالث من من روايتنا .

واحتل الروس رومانيا ، وانتوى رجال قرية فانتانا مقاومة الغزو الروسى بقوة السلاح ، فعارضهم القس كوروجا ولكنهم أصروا فباركهم القس ثم غادروا القرية ولجأوا الى الغابات ، وعندما سيطر الجيش الأحمر على رومانيا عينوا ماركو جولندبرج — وهو اليهودى الذى اعتقله رئيس شرطة فانتانا مع ايوهان موريتز — رئيسا لمحكمة الشعب بالقرية بعد أن حرروه من الأسر ، وكان أول ما عمله هو أن حكم على القس بالاعـدام لأنه بارك عصابات الفاشية . ونفذ هو بنفسه الحكم فى القس وفى آخرين رميا بالرصاص ، وكان من بينهم جورج داميان وكيل النيابة . لكن القس لم يمت فأنقذته أم ايوهان موريتز وزوجتــه الأولى ســوزانا ، وسلموه الى قافلة ألمانية كانت تتقهقر . وفى الصباح حكم ماركو على أم ايوهان بالاعدام لأنها أنقذت القس وأعطته للالمان . بينما هربت سوزانا مع ولديها .

أما ايوهان موريتز فكان قد وصل الى منطقة الاحتلال الأمريكية حيث عومل أولا بتكريم فى مؤسسة الأونرا الأمريــكية فى مدينة فيمار وذلك لمساعدته خمسة من الأسرى على الفرار من النازى ، لكنه ما لبث أن استدعى ذات يوم وسأله مدير المؤسسة الأمريكى بصوت قاس :

ـ الست رومانيا ؟ ان الرومانيين أعداء الأمم المتحدة ، وأنت رومانى فانت عدو لنا بصورة آلية ولا تستطيع مؤسسة الأونرا أن تأوى وتطعم رعايا البلاد العدوة . يجب أن تخلى غرفتك .

وفى الوقت نفسه كان تريان قد لجأ هو أيضا الى منطقة الاحتلال الأمريكى بالمانيا بعد أن سجنه الألمان مع زوجته سنة كاملة . وطالب التصريح له بالخروج من المانيا . ولكن الحاكم الأمريكى أفهمه أن رومانيا من الدول الأعداء .

ـ لكن رومانيا تقاتل مع الحلفاء ضد المانيا منذ أكثر من عشرة شهور ، وأنت تعرف ذلك كما أعرفه ، لقد قتل ثمانون ألف رومانى فى سبيل قضية الحلفاء ، فهل تعتبرون أولئك الذين يقاتلون فى صفوفكم من أعدائكم ؟.

ولكن ميجر براون كرر قائلا : ان رومانيا دولة عدوة ... وأخرج من مكتبه ورقة وراح يقرؤها بصوت مرتفع . البلاد العدوة رومانيا ، هنغاريا ، فنلندا ، ألمانيا ، اليابان ، ايطاليا ، ان هذا واضح أليس كذلك ؟ انكم معشر الرومانيين أعداء الولايات المتحدة .

وبعد أسبوع قبض عليهما وأودعا معسكرات الاعتقال .

وسألت نورا زوجة تريان ـ بيأس ـ اننى لا أعرف سبب القبض علينا ، ولا يمكن أن يكون هناك سبب .

أجابها تريان : هناك سبب ولا شك ، ولكنه سبب سخيف شاذ من الناحية الانسانية ومعترف بعدالته من وجهة نظر الآلة . ان الغرب ينظر الى الانسان من الوجهة الآلية ، أما الانسان المخلوق من لحم وعظم ، القادر على الشعور والفرح فانه غير موجود ... وعندما يقبض على

شخص او يقتل فانه لا يقبض على شيء حي بل على رقم أو شعار . ولا يمكن لأحد أن يطلب الي آلة معاملة الانسان معاملة تنطبق على مميزاته الشخصية .

واقترب الروس من المدينة ليحتاوها فظن تريان وزوجته ان الأمريكيين سيسلمونها الى الروس ، فقرر تريان أن الانتحار خير من الوقوع فى يد الروس . وهنا قالت زوجته :

وماذا لو بقينا لدى الروس ، قد لا يكون الشيطان شديد السواد كما يصفونه . ان هناك عددا كبيرا من البشر تحت الحكم الشيوعى . ولما كانوا لا زالوا على قيد الحياة فاننا قد نستطيع أن نعيش مثلهم .

قال تريان : انك على حق ، ان فى الدولة الشيوعية بشرا يعيشون ، ولعل حياتهم ليست أكثر مشقة وصعوبة من حياة الرجال فى الغرب .

ويستطرد تريان ــ او المؤلف الحقيقى فى الواقع ــ فيقول : ليس فى العالم حقائق موضوعية ، ان كل ما فيه ذاتى ! .

ولم يسلم الأمريكيون تريان وزوجته الى الروس بل نقلوهما الى معسكراتهم فى منطقتهم المحتلة من المانيا . وهناك تقابل تريان مع ايوهان موريتز . وبدأ تريان يشرح آراءه لايوهان قائلا :

ــ ان حيوانا جديدا ظهر على سطح الأرض فى الآونة الأخيرة . هذا الحيوان الجديد اسمه المواطنون . انهم لا يعيشون فى الغابات ولا فى الأدغال ولكن فى المكاتب . ومع ذلك فانهم أشد قسوة ووحشية من الحيوانات المتوحشة فى الأدغال . لقد ولدوا من اتحاد الرجل مع الآلات . انه

نوع جديد من أبناء السفاح . وهم اقوى الاصول والأجناس الموجودة الآن على سطح الأرض . ان وجههم يشبه وجه الرجال ، بل ان المرء غالبا ما يخلط بينهم ولكن لا يلبث المرء أن يدرك ، بعد حين ، أنهم لا يتصرفون كما يتصرف الرجال بل تصرف الآلات . ان لهم مقاييس واجهزة تشبه الساعات ، بدلا من القلوب وأدمغتهم نوع من الآلة ، فهو بين الآلة والانسان ، ليسوا من هؤلاء ولا من ذاك . ان لهم رغبات الوحوش الضارية مع انهم ليسوا وحوشا ضارية . بل انهم مواطنون ... انهم سلالة غريبة اكتسحت الأرض ... أنهم عديمو الشعور ، لا يعرفون الكراهية ولا الانتقام . والشفقة غريبة عليهم . انهم يعملون آليا ويجهلون ما هو غير مسجل فى البرامج .

ونقل المعتقلون الى معسكر آخر ، وكان النقل عن طريق القطار . وقال تريان يحدث موريتز : ان قطارنا يشبه القافلة التى كانت تتسلق الجلجثه حيث صلب المسيح . والفرق ان قافلتنا آلية . لقد صعد يسوع على قدميه بين مجرمين حقيقيين . هل تعرف أن يسوع قد صلب بين مجرمين ؟ .

ـ كلا لا أعرف ذلك .

ـ من عادة القضاة اذا أرادوا معاقبة برىء أن يحيطوه بمجرمين . ان الحيلة معروفة منذ القدم . ان سببها هو جذب انتباه الجماهير الى ناحية أخرى ، خلال تنفيذ أحكام الاعدام ... غير أن الخدعة صبيانية ، فبعد تنفيذ أحكام الاعدام لن يذكر الجمهور الا يسوعا وحده . هذه هى الطريقة التى اتبعت فى كل العصور وهذه نتيجتها . وهذا ما يقع اليوم حتى ولو رفعنا على الصليب بشكل آلى .

وطالت أيام الاعتقال فأرسل موريتز خطابا الى سلطات الاحتلال الأمريكى يقول فيه : اننى انسان ، فاذا كنت لم أسىء الى أحد ، فلا يحق لأحد أن يسجنى ويعذبنى . ان حياتى وظلى ملك لى . ولا يحق لكم — مهما بلغت مصفحاتكم ورشاشاتكم وطائراتكم ومعسكراتكم ونقودكم التى تملكونها — أن تمسوا حياتى وظلى . اننى لم أشته طيلة عمرى الا شيئا قليلا : أن أستطيع العمل ، وأجد المكان الذى آوى اليه مع زوجتى وأولادى وأن يكون لدى ما آكله . فهل من أجل هذه الرغبة تسجنوننى ؟ .

وبعد أن سرد قصة عذابه من بلد الى آخر وكيف كانوا يجعلون اسمه يهوديا فى بلد وآريا فى بلد آخر قال : هل تريدون أنتم ايضا تبديل اسمى ؟ ابدلوه . اننى أعرف الآن أن بنى الانسان لم يعد يحق لهم الأسماء التى تطلق عليهم ساعة العماد . لكننى أريد أن ابلغكم الآن شيئا .. اننى لن أستطيع بعد الآن صبرا . أريد أن اعرف السبب الذى من أجله أسجن وأعذب .

وبعد ثلاثة أيام من هذا الخطاب استدعى ايوهان موريتز ليسألوه اذا ما كان يكتب موريتز بحرف التاء أم حرف فى الزاى ، وكان هذا هو كل ماحققوا فيه ! .

وفى هذه الأثناء وصل الى موريتز خطاب ينبئه ان زوجته الألمانية أحرقت نفسها وولدها الذى أنجبته من ايوهان .

أما تريان فكان يكتب الشكوى تلو الشكوى وهو يردد فى قوله ان الرجال الذين يسجنوننى هنا لا يمقتوننى ولا يريدون معاقبتى ، ولا يطلبون موتى . أنهم يريدون فقط أنقاذ العالم .

واستدعاه الضابط الأمريكى أخيرا ليقول له .. اننى مقتنع بأنك لست مذنبا ، وهذه هى المرة الرابعة التى اطلب فيها الى السلطات اطلاق سراحك .. لكنى لم أتلق جوابا . ان أوامر اخلاء السبيل لا يمكن أن تمنح بصورة فردية . ان اطلاق السراح ، لا يمكن ان يقع الا لمجموعات من الأشخاص . قد يبدو أسلوبنا جافا آليا وحسابيا لكنه صحيح .

ـ اذن الاستجواب الذى تعرضت له الآن لا يهمك ؟ .

ـ بل يهمنا ، نحن نريد أن نعرف عن الشخص اسمه الكامل الصحيح ، تاريخ الولادة ، مكانها ، مهنته ... الخ لنسجل تلك المعلومات على بطاقات خاصة وندونها فى احصاءاتنا ، ثم نقسم المساجين الى فئات ونوزع كل شخص على الفئة التى ينتمى اليها .

ـ أولا تجدون أن الغاء الانسان ومعاملته كجزء من فئة عمل غير انسانى ؟ .

ـ بل انه اساوب عملى سريع علاوة على انه عادل . ان العدالة تسير وفق مناهج العلوم الرياضيةوالفيزيائية . أى بحسب الأساليب الأكثر دقة . ان الشعراء وحدهم وعلماء اللاهوت يستنكرون هذه الوسائل والأساليب . لكن المجتمع المتمدين قد نقح المبادىء اللاهوتية والشعر ، اننا الآن نجتاز حقبة علميـــــة رياضية سليمة ولا يمكن العودة الى الوراء لأسباب عاطفية .

وفكر ايوهان موريتز فى الفرار الى بيته فى رومانيا ولكن تريان حـذره لئـلا يقتله الحرس البولونى الذى يرتدى ملابس امريكية .

ـ فاذا أخطأك البولنديون فسيقتلك الأمريكان أو الألمان

قبل أن تصل الى رومانيا . انك تلاقى فى طريقك جنـودا نمساويين وتشيكيين وفرنسيين وهنغاريين ، فلا تصل أبدا الى رومانيا . سوف يناوئنك فى الطريق . فاذا تفاديت بنادق أمة ونجوت من جنودها قتلتك الأمة التى تليها ، ان بينك وبين بيتك ، بينك وبين أسرتك يا عزيزى موريتز تقوم أمم العالم . أمم مسلحة تريد قتلك ... ان هذا الجيش الدولى العالمى يقوم بين كل رجلَ وحياته الشخصية الخاصة . ان الانسان الآن لم يعد يسمح له أن يعيش حياته الخـاصة . انه يقتل رميا بالرصاص اذا حاول ذلك . أن المصفحات والرشاشات والأنوار الكاشفة الشائكة قد صنعت من أجل هذا الهدف .

وفجأة التقى ايوهان موريتز بصديقه القديم الدكتور ابراموفيس ــ وهو اليهودى الذى فر معه من رومانيا ــ وكان يدخل الآن فى زى ضابط أمريكى . فظن موريتز أن ساعة الحرية قد دنت . وقال له الطبيب :

ــ اننى الآن فى مركز قوى ، وأنت تجتاز لحظات رديئة من حياتك . ماذا تحتاج ؟ أتريد لفافات أو غذاء أو كساء ؟ اذكر لى ما تريد .

ــ بل أريد الخروج من هنا . أريد العودة الى بلدى ، الى زوجتى وأولادى .

ــ لا تطلب المستحيل . لقد ظللت قرويا شديدالسذاجة والجمود . انك تعتقـد بأن أى ضابط يستطيع اطلاق سجين ما ، لأنه يعتقد أنه غير مذنب . أليس كذلك ؟ لو أن الأمر كذلك لأخلى هذا المعسكر بين عشية وضحاها . ان كل نازى يستطيع ايجاد أدلة على براءته . ان اطلاق السراح لا يتحقق الا بناء على أمر الأركان العـامة فى فرانكفورت ومنه ترسلَ الأوراق الى واشنطن فيحول

القرار منهـــا الى ويسبادن . فتشكل لجنـــة خاصة فى اسلجن وترسله الى برلين . وبذلك يرسل أمر اطـلاق السراح الى برلين ، ويرســــــل فى ذات الوقت الى هيدلبرج . وحين يصل الأمر الى هيدلبرج ترفع البطاقة من المحفوظات فى مئات المـكاتب وعنـدئذ فقط يطلق السراح . لـكن كل هذه المعاملات شـديدة التعقيد ، انها آلة تعمل أوتوماتيكيا .

ان اسمك مسجل فى العالم بأسره فى كل مكان ، فى المكتب الاتحادى للمعلومات فى أمريكا ، وفى القيادة الحليفة العليا بباريس ، وفى لجنة الرقابة فى برلين ، وفى كل المعسكرات والسجون وفى مكاتب البوليس : بوليس الجرائم السياسية ، الشرطة العسكرية ، شرطة المشبوهين ، شرطة الطوارىء ... الخ .

ان كل حركاتك حتى اكثرها تفاهة ولو لم يكن الا نقلك من معسكر الى آخر ـ تحدث حركة وتبديلا فى بطاقتك ، بين مختلف دوائر المحفوظات ، فهل كنت تعرف ذلك ؟ .

لقد قمنا باعتقالات وقائية بحسب الأصناف والطبقات . فاذا احتجنا الى المذنب أو الى مجرم حرب مثلا ، فانه يكون تحت يدنا بدلا من البحث عنه فى كل مكان .... اننا لا نتكلف الا عنـــاء الضغط على زر ، يتعلق بالحروف الأولى من الاسم ، وقبل أن نعد ثلاثة ، تـكون بطاقة الشخص المطلوب بين أيدينا مع صورته وكل المعلومات المتعلقة به : طوله ، وزنه ، لون شعره تاريخ ولادته ومكان الولادة ، عـدد أسنانه ... وعنـدئذ يـكفى أن نرفع السماعة ـ لنبلغ بواسـطة الراديو ـ المعسكر أو السجن الذى يكون فيه رجلنا ، فلا تنقضى ساعات معدودة الا

ويكون الشخص بلحمه ودمه ماثلا امام محكمة نورمبرج الدولية . ان هذا العمل مدهش . انه نتيجة التقدم الفنى الآلى . فكيف تريدهم ان يطلقوا سراحك ؟ ان ذلك يعادل الجنون . انك تشبه خيطا انتظم فى نول للحياكة . ومنذ ان أدخل فى مكانه يتعذر استخراجه وعندئذ ينبغى الانتظار حتى يخرج من تلقاء نفسه منسوجا مع الخيوط الأخرى .

ان كونك مجرما او بريئا مسألة شخصية يمكن أن تهتم بها زوجتك أو أن يهتم بها جيرانك والفلاحون الآخرون فى قريتك ، ان هؤلاء وحدهم يهتمون بمسألتك الشخصية . أما الدول الراقية فانها تنظر الى الأمور نظرة اجمالية . ان رئيس الولايات المتحدة نفسه لا يستطيع اطلاق سراحك . ينبغى أن تنتظر حلول دورك بهدوء . هل تريد سيجارة ؟ .

ومد موريتز يده ليأخذ سيجارة ، لكن العلبة كانت فارغة . وراح الطبيب يبحث عبثا عن علبة أخرى فى جيبه فقال له : سأقدم لك سيجارة فى المرة القادمة .

أما تريان فلجأ الى طريقة أخرى عله يخرج ، لجأ الى الاضراب عن الطعام حتى بلغ به الضعف مبلغا كبيرا وانتابه الغثيان وعندما زاره الطبيب حسبه مجنونا وحاول تريان أن ينفى عن نفسه تهمة الجنون أمام الضابط الطبيب قائلا له :

ــ لست مجنونا أيها الملازم ، فقط أشعر بغثيان رهيب . لا شك أنه لا يمكنك أن تشعر بالغثيان لأن المرء اذا بدا مغمض العينين محكما سد أنفه فانه لا يتعرض لشيء .. هناك عمال يتناولون افطارهم وغذاءهم

وعشاءهم قرب فتحات المجارى العامة أو حفر المراحيض ولكن ذلك لا يؤثر فيهم لأنهم الفوه ... ان الألمان كانوا يحرقون جثث المساجين فى معسكرات الاعتقال ، لكنهم ما ان يغلقوا باب الآتون حتى يمضوا لتناول طعامهم ببشر وغبطة دون أن يشعروا بأى غثيان . يوجد هنا رجال صنعوا فراشا من شعور النساء اللائى قتلوهن فى معسكرات الاعتقال واستعملوا ذلك الفراش للنوم عليه مع عشيقاتهم ومطارحتهن الهوى وأنجبت لهن نساؤهم ابناء بعد نومهم معهن على ذلك الفراش ، بعد أن مارسوا تلك الغرائز دون أن يشعروا بأى تقزز أو اشمئزاز ... وانتم أيضا لا تخافون الغثيان ولا تشعرون به مهما عملتم . انني واثق أنكم لا تتعرضون لأى خطر ، لأن الغثيان ـ وأرجو أن تصدقني ـ وبال جسيم .

ومن شرفة غرفته رأى تريان الحرس يفتشون المعتقلين بحثا عن محظورات قد تكون فى حوزتهم . فتشوا أولا ملابسهم ، ثم تحت آباطهم ومؤخراتهم ، فقال تريان معلقا :

ـ ان التفتيش لم ينته بعد ، ولن ينتهى بسرعة لانه لم يبدأ بعد . لقد فتشتم بادىء الأمر عن الذهب فى الحقائب والدور والجيوب وبين الملابس وفى الاحذية والثنيات وفى السراويل الداخلية والآن تبحثون عنه فى أفواه الرجال تحت أباطهم وفى مؤخراتهم ، انكم تبحثون فى كل مكان . على الرجال أن يقفوا عراة امامكم . ومع ذلك فانها ليست الا البداية ، سوف تنتزعون الجلود غدا بحثا عن الذهب تحتها ، ثم تنتزعون العضلات عن العظام بحثا عن الذهب وبعدئذ تحطمون العظام اذا لم يكن فيها شيء من الذهب ، وأخيرا تضغطون ادمغة الرجال

وتفتشون فى امعائهم ومصارينهم وتمزقونهم اربا ، بحثا عن الذهب وقطع الذهب وخواتم الذهب . ستحطمون القلوب وتجزؤونها بحثا عن الذهب . الذهب الذهب . اننا اليوم فى البداية . انكم لا زلتم تبحثون فوق الجلد . لكن الجلد سينزع والتفتيش سيستمر .

ونقلوا تريان الى مستشفى المجاذيب حيث اضطر ــ تحت الضغط والارهاب ــ أن يعدل عن اضرابه . لكنه عندما أعيد الى المعتقل سار نحو الأسلاك الشائكة حيث المنطقة المحظورة وهناك أطلق الحراس عليه النار فوضع لحياته حدا . وهكذا أصبحت زوجته أرملة .

وأخيرا أخلى سبيل ايوهان موريتز ، والتقى بزوجته سوزانا وولديه منها وولد ثالث جاء نتيجة لاستباحة الجنود الروس لها . وأخلى سبيل نورا أرملة تريان آليا ، كما قبضوا عليها من قبل آليا . ولم يكن لديها مال ولا أثواب ولا حلى ولا حتى خاتم زواجها . فمكثت فى المانيا وعملت كأمينة سر مع الملازم الأمريكى لويس . وعرض عليها الملازم الأمريكى الزواج ولكنها رفضت قائلة :

ــ انك عاجز تماما عن اظهار أية عاطفة ، ولست وحدك العاجز بل ان أى رجل فى حضارتك لا يستطيع انماء عاطفته فى نفسه . ان الحب ، تلك العاطفة البليغة ، لا يمكن أن تكون الا فى مجتمع يؤمن أن الكائن البشرى فرد لا يمكن استبداله . والمجتمع الذى تنتمى اليه يؤمن بشدة أن اى رجل يمكن استبداله برجل آخر ، وأن أى امرأة يمكن استبدالها بامرأة أخرى . وبمثل هذا الاعتقاد لا يمكنكم أن تحبوا .

ان العشاق فى مجتمعى يؤمنون أنهم اذا لم يوفقوا فى كسب عطف المرأة المحبوبة فلن يستطيعوا استبدالها بسواها بين كل نساء العالم ؛ لهذا فانهم كثيرا ما يقتتلون في سبيلها . ان الرجل الذى يحبنى حقا . يشعرنى بأننى المرأة الوحيدة التى تستطيع اسعاده ؛ المخلوقة الوحيدة ... فهل أنت قادر يا سيد لويس على تقديم مثل هذا التوكيد ؟ انك واثق أننى اذا رفضت ؛ فانك واجد امرأة أخرى تقبل الزواج بك واذا رفضت هى فانك واجد ثالثة ورابعة ، أليس كذلك ؟ .

أجاب : هذا صحيح ولكنى سآسف اذا رفضت الزواج بى .

ــ اذن يجدر بنا يا سيد لويس أن نتابع عمل مكتبنا المقدس .

***

ان الساعة الخامسة والعشرون هى أول الطريق الذى يؤدى فى النهاية الى عالم الدوس هكسلى الطريف . فقد تخيل ألدوس هكسلى عالما فيه كل شىء آلى ومرسوم تسوده الرموز وقوانين الرياضة وتكاد تنعدم فيه الصفات الانسانية وهو عالم ــ على عكس الساعة الخامسة والعشرين ــ معدوم الصلة بعالمنا . انه نهاية الطريق . فالساعة الخامسة والعشرون هى الساعة الحاضرة ، اما العالم الطريف فهو الساعة المقبلة .

وليس غريبا أن يكون فيلسوف وجودى آخر هو نيقولا براديف صاحب مقدمة العالم الطريف ، وفيها يتساءل هذا الفيلسوف عن الوسيلة التى تحول دون تحقيق أمثال هذه المدن المخيفة ، حتى يعيش الانسان فى مجتمع أقل « كمالا » لكنه أكثر حرية ، اذا كان ثمة تناقض بين الكمال والحرية .

ان الساعة الخامسة والعشرون تجمع فى سطورها بين النقد الساخر الذى وجهه شارلى شابلن فى أفلامه الى النظام الآلى فى المجتمع الراسمالى ، وبين النقد المر الذى يوجه الى كل نظام شمولى .

وعيب الساعة الخامسة والعشرين أنها لا تعبر الا عن هذا الجانب النقدى ، عن اليأس ، وعن أمل غامض سحرى ، فى خلاص يأتى من الشرق . انها لا تشترك فى طريق البناء والخلاص . ومن هنا فهى مأساة لا بطولة فيها لأنه لا كفاح فيها ، تشترك فى ذلك مع كل المراثى التى رثت الحضارة الأوروبية وفى مقدمتها مراثى ت . س . اليوت ، وانه لرثاء رائع بليغ ، ولكنه ليس الا رثاء .

حقا ليس هناك من معنى بأن أتوهم بأنى حر فىعقيدتى ورأيى (رغم وسائل الدعاية الحديثة التى تفرض على) فى مجتمع تمنعنى فيه حالتى المادية من أن أكون حرا فى أن أتعلم وأعمل وأعالج ، ولكن ليس من معنى أيضا فى أن أحصل على هذه الحريات الأخيرة لأفقد أبسط حرياتى الشخصية . ان أمل الحضارة الوحيد فى الخلاص اليوم هو أن نعرف كيف نوازن بين الحرية والمساواة ، وبين الفرد والجماعة ، فلا يطغى أحدهما على الآخر .

الحب الزوجي

لالبرتو مورافيا

« لسنا نستطيع أن نرى فى هذا اللون من الحب الزوجى الذى يقدمه لنا ألبرتو مورافيا فى قصته تلك لونا عاما يجد فيه جميع النـــاس نفوسهم ، لأنه حب بين زوجين جد مختلفين ، ربما وجد الفنان من حقه أن يبالغ فى اعطائهما صـفات متطرفة لـكى يوضح نفسه وفكرته وان كان يعلم أن الواقع لا يمثل هذا التطرف المتناقض الا على سبيل الشـذوذ . فليدا زوجة جميلة ممتلئة كلها غريزة وكلها شـهوة ، وهى تدرك ذلك وتحاول أن تقاومه ، ولهذا فهى لا تحب أن تنساق الى غريزتها وشهوتها وترى أن فى الارادة الخيرة خير منقذ لها من غريزتها ، أما الزوج فهو على عكس ذلك تماما ، لا يعتمد فى حيـاته الا على الارادة الخيرة ولهـذا فهـو ميال الى الغريزة وما فيهـا من مباهج ومكاسب . وكان — كما يقـول عن نفسه — كاتبا لديه كل ما ييسر له اروع ما يمكن كتابته من ثروة ووقت ومكان هادىء مريح واحسن انواع الأوراق واجود أنواع أقلام الحبر

وآخر اختراع للآلات الكاتبة . لديه كل شيء ما عـدا العبقرية ولهذا فانه يحسد الورق الرخيص الذى يخط عليه شاب يتضور جوعا بضعة خطوط بالقلم الرصاص مدفوعا بالهامه وهو جالس في مقهى أو مطعم عام . ومن هنا لم يكن لدى سيلفيو بالديتشي الا ارادته فى أن يكتب ، ولكن ارادته تلك لم تكن شيئا كافيا فقد كان لابد من وجود الالهام أو العبقرية أو الدافع الغريزى ؛ وهو ما يدرك أنه لا يملكه . ولهذا فقد عمل حينا بالنقد ، فلما تحول الى التأليف وجـد نفسه يحسن الأسلوب ولـكنه يفشل فى اختيار موضوعه . ومع ذلك فان قصة الحب الزوجى التى يقـدمها لنا لم تفشل أسـلوبا ولا موضوعا ، وذلك لأن كاتبها الحقيقى لم يكن بطلها ؛ انما كان ألبرتو مورافيا نفسه .

***

لست أذكر على وجـه الدقة كيف ولا متى قابلت زوجتى ليدا لاول مرة ولكننى أذكر أنها كانت فى مثل سنى تقريبا ، وبدا لى ان حياتها تشبه حياتى من وجوه كثيرة ، وقد كان هـذا حقيقيا ولـكنه من نواح قليلة وسطحية ، فقد كانت ــ مثلى ــ ثرية ولديهـا فراغ وتتحرك فى نفس بيئتى . ومع ذلك فقد بدت لى هـذه المشابهة ذات أهمية كبرى وكأنما عثرت بذلك على المرأة التى أنشدها . وكانت قد تزوجت من قبل فى ميلان وهى ما تزال صغيرة من رجـل لم تحبه وقـد استمر زواجها سنتين انفصلا بعدها ثم حصلت على طلاقها فى سويسرا . وقد اعترفت لى فى أول مرة تقابلنا فيها بأنها متعبة من الحياة وأنها تبغى حياة الاستقرار . وقد تكشف لى من اعترافها هذا ــ الذى ألقته ببساطة وكأنما

تشير الى برنامج عملى لحياتنا ـ نفس الحالة العقلية التى كنت أعيشها سنوات عديدة ، وقررت فى الحال انها لابد وأن تصبح زوجتى . ورغم أنى لا احسب أن ليدا على درجة كبيرة من الذكاء الا أنها استطاعت أن يكون لها شيء من النفوذ على ، وقد توهمت فى ذلك الوقت اننى انا الذى اغريتها على الزواج منى ولكن استطيع أن اقرر الآن أنها هى التى قررت ذلك وانه بدون ذلك القرار ما كان يمكن لزواجنا أن يتم . وكنا ما نزال فى بدء تعارفنا الذى حسبته سيستمر مدة طويلة ، حين أسلمت نفسها الى ، وتكاد تكون هى التى أرغمتنى على ذلك ، وهذا الاستسلام زاد من اعجابى لها ، بينما كان من الممكن أن يثير احتقارى فى حالات أخرى . وطلبت منها الزواج أخيرا وانا على يقين أنها ستجيب طلبى فى الحال . ولكنى على العكس من ذلك وجدتها ـ لدهشتى ـ تجابهنى بما يكاد يكون رفضا تاما ، كأننى قد خرقت بذلك الطلب قانونا اخلاقيا . واحسست اننى وصلت الى الأعماق المظلمة ليأسى القديم ورأيت أننى يجب الا اجبن الآن عن الانتحار . وبعد مضى عدة أيام اتصلت بى تليفونيا تسألنى بدهشة عن السبب فى عدم رؤيتى لها ، فذهبت اليها حيث رحبت بى وهى تعتب على أننى هجرتها وأننى لم أعطها فرصة للتفكير . واعلنت موافقتها على الزواج . وبعد أسبوعين تزوجنا .

وبعد ذلك بدأت فترة من أسعد فترات حياتى فاحببت ليدا بعنف ومع ذلك فقد كنت خائفا أن افقدها طيلة الوقت ، ولما كنت اعرف انها جاهلة ، فقد اقترحت عليها أولا أن أقوم بتلقينها برنامجا فى التربية الجمالية ، واخبرتها انها ستجد لذة فى التعلم كتلك اللذة التى

سأجدها فى التعليم . واكتشفت أنهـــا انسانة معقولة للغاية ، فاستطعنا أن نتفاهم على ترتيب جدول لدروسنا وأخذت على نفسى أن أجعلها تقدر كل شىء أعرفه وأحبه. ولست أعرف الى أى حد كانت تتابعنى أو تفهمنى ، ولو أنه أقل بكثير مما اظن . ومع ذلك كانت تشـــعرنى بانتصارى عندما تقول ببساطة « اننى أحب هذه القطعة الموسيقية .. هذه القصيدة جميلة .. أعد على قراءة هذه الفقرة .. فلنستمع الى هذه الاسطوانة مرة أخرى » وفى الوقت نفسه ، ولـكى نشغل ساعات فراغنا ، كنت أقوم بتعليمها الانجليزية ، وقد أصابت تقدما محسوسا فى هـذه الناحية لأنهـا كانت ذات ذاكرة طيبة وميل طبيعى . ولـكن كل هذه الدروس والايضاحات كانت تكتسب صفة جذابة بسبب لطفهـا ومحبتها وارادتهـا الطيبة . ولهذا فرغم أنها كانت التلميذة وكنت أنا المدرس الا أننى كنت أحس ـ كلما تقدمت هى ـ باحساس التلميذ الذى يتقدم فى دروسه . وكان هذا صحيحا لأن الدرس الحقيقى بيننا كان هو الحب ، وكان يبدو لى أننى أكثر سيطرة عليه يوما بعد يوم .

وحين كنت أضطجع فى السرير بجانبها ، كنت كثيرا ما أتأمل جسدها العارى ، وكثيرا ما كنت أحس بالخوف عندما أجده شديد الجمال ، فهو جمال يفوق كل وصف . وكثيرا ما كنت أتحســس فى شفتى أثر القبلة التى طبعتها على شفتيها . وكان على أن أضع فى اعتبــارى ـ وفى وسط سعادتى الكاملة ـ ارادة زوجتى الطيبة . فحبها لم يكن تلقائيا مثل حبى بل كان حبا اراديا ، فقد كانت لديها رغبة فى أن تسرنى دائما وترضينى دائما بل وأن تمتدحنى ، ولقد رضيت بهـذه الارادة الطيبة كدلالة على

محبتها لى ولم اشغل نفسى ـ فى ذلك الوقت ـ بأن أبحث عما تخفيه وراء ذلك ، فقد كنت سعيدا لدرجة أننى تجاوزت عن أنانيتى .

ولم اكن قد ذكرت لزوجتى شيئا عن مطامعى الأدبية ، لأننى كنت أحس أنها قد تفهم شيئا منها ، كما أننى لم أحقق منها نجاحا يذكر .

وكنا قد أمضينا الصيف على شاطئ البحر بالريفييرا ، وبدأنا نناقش فى شهر سبتمبر مشروعات الخريف والشتاء . فذكرت لها شيئا عن محاولاتى الأدبية واذا بها تظهر دهشتها قائلة : ولكنك لم تخبرنى بذلك أبدا يا سيلفيو . وحثتنى على أن اريها شيئا مما أكتب . وبدا لى ذلك الوقت أن رأيها ـ رغم جهلها ـ أهم لدى من رأى خير النقاد . وبعد أن أبديت لها شيئا من المعارضة وافقت على أن أقرأ لها احدى قصصى القصيرة التى كتبتها منذ سنتين . وأثناء قراءتى لها وجدت ان قصتى ليست بالرداءة التى كنت أتصورها . ولكنى بعد أن قرأتها قلت لها : هأنت ذى ترين انها قصة فاشلة . فسكتت لحظة كأنما تجمع شتات أفكارها ثم أجابتنى : انك لمخطئ تماما ، انها قصة جيدة رغم ما فيها من نقص . ورغم أننا لا نميل الى تصديق المديح الذى يكيله لنا أقرباؤنا الا أننى أحسست أنها قد أحبت القصة بغض النظر عن قرابتها لى كما أن مديحها كان منطقيا لدرجة انه لايبدو مجرد اشفاق . فقلت لها أخيرا « اذن أنت تريدننى أن أكتب » لقد مارست الكتابة مدى عشر سنوات ، وعبثا حاولت الحصول على شئ ذى أهمية . ولكن اذا قلت لى استمر ، فاننى سأستمر .

ـ انك تضع مسئولية كبيرة على عاتقى .

ـ تكلميننى كأنما انا شخص غريب بالنسبة لك .

ـ ولكنى أخبرتك أنك لابد أن تستمر .

ثم نظرت الى « وقالت » بدلا من العودة الى روما ، فلنذهب الى الفيللا التى فى توسكانيا ويمكنك أن تكتب هناك .

ـ ولكنك ستملين الحياة هناك .

ـ ولماذا ؟ ستكون أنت هناك ، كما أننى سأستمتع بتغيير الجو . فالحياة الهادئة لم تتح لى منذ زمن بعيد .

وبعد اسبوع غادرنا الريفييرا الى توسكانيا .

ونظمنا حياتنا من أول يوم ، فكانت الخادم العجوز تحمل لنا الافطار صباحا فى غرفة زوجتى ثم أغادرها الى مكتبى لأكتب ، أو على الأقل محاولا أن أكتب ، حتى الظهر . بينما تصدر زوجتى أوامرها الى الطباخ . وفى الظهر نتناول الغداء معا ثم نحتسى القهوة ثم نصعد لنرتاح قليلا فى غرفتينا ونلتقى من جديد لتناول الشاى ، وبعد ذلك نمشى قليلا بين الحقول على شاطىء قنال معشوشب أو فى الطريق العام المؤدى الى المدينة ، وبعد عودتنا كنت أعطيها درس الانجليزية ثم أقرأ لها أو تقرأ لى هى ان اتسع الوقت ، ثم نتعشى وبعد العشاء نقرأ أو نتناقش ، وأخيرا أذهب مع زوجتى الى غرفتها حيث أنام معها ، والحقيقة أن يومنا كله يفضى الى هذه اللحظة . وكنت أجد زوجتى دائما على استعداد ، سهلة الانقياد ،

كأنما تهبني وتهب نفسها مكافأة ومتنفسا بعد مثل هـذه الساعات الكثيرة الهادئة . وكان حبنا ينبثق فى هـذا الليل الساكن الممتد من خلال النوافذ المفتوحة ويتقد فى شعلة حية اتقادا طويلا صامتا وواضحا وحيا كأنه شعلة تلك المصابيح الزيتية القديمة التى كانت تضىء يوما ما جنبات هذه الغرف المظلمة . وكنت أدرك فى مثل هذه الليالى معنى العـــاطفة الزوجية ـ ذلك الخليط من التقديس العنيف والرغبة المشروعة .

اما الشىء الذى لم يكن على ما يرام فهو عملى . لقد كنت ابغى كتابة قصة طويلة ، وكانت قصة الزواج هى التى تشغلنى ، قصتنا ، قصتى وقصة زوجتى . وكانت فصولها تبدو لى واضـحة كل الوضوح ، ولـكن حين اجلس الى مكتبى وابدأ الـكتابة فان كل شىء يضطرب ويتعطل ، ولما كنت قد اشتغلت بالنقد سابقا فان هـذه الخبرة جعلتنى ادرك بأن عملى لا يتقدم بل يتأخر ، وفى كتاباتى السابقة كان أسلوبى على الأقل ناجحا ، أما الآن فلا الموضوع ولا الأسلوب ناجحان ، وربما كان من الممكن أن أدع عملى ويكفينى حبى لزوجتى لو لم تكن هى التى تدفعنى الى ما أقوم به الآن . وهى تظن ـ لجهلها بشئون الأدب ـ أن الكتابة تأتى بمجرد الارادة . وعندما حاولت أن أعرض أمامها بعض العقبات التى تصادفنى لم تجبنى الا قائلة : « لقد وعدت أن تكتب عنى قصة ، ولابد أن تفي بوعدك » .

وكنت قـد لاحظت أننى فى الصباح ـ وبعد انقضاء الليل مع زوجتى ـ أحس برغبة لا تقاوم فى أن اترك افكارى مشتتة ، واحس ارتخـــاء فى أطرافى . وقـد انتبهت ـ ان صوابا وان خطأ ـ الى أن سبب هذا الميل

الى الكسل هو تفريغ طاقتى الجسدية الذى أحس به بعد اتصالى بزوجتى فى الليلة السابقة . وأدركت أننى لا اقبل على الكتابة لأننى استنفدت كل قواى الهجومية فى أحضان زوجتى . فما أعطيه لزوجتى هو نفس المقدار الذى أنتقصه من عملى .

وهكذا كنت أحس أن قوتى الابداعية تمضى ـ كل ليلة ـ من وسط جسـدى حتى أنه لم يكن لـدى فى اليوم التالى ما يكفى لتغذية ذهنى ، ومع ذلك فكلما حان الوقت لأضطجع مع زوجتى أقنعت نفسى بأنى من القوة بحيث أستطيع أن أجمع بين ذلك وبين العمل فى صباح اليوم التالى ، ولكنى ما ألبث أن أعود الى ما كنت عليه عندما يأتى الصباح ، فاذا عاد المساء كان اتصالى بزوجتى مرة أخرى لتعويض احساسى بالهزيمة الذى عانيته فى الصباح . ولكنى بعد أن وجدتنى أدور فى هذه الدائرة المفرغة عدة مرات صممت أن أصارح زوجتى ، فاذا كانت حريصة حقا على أن أتمم قصتى فعليها أن تتقبل اعتذارى . وعندما اضطجعنا جنبا الى جنب فى السرير قلت لها :

ـ اسمعى ، لابد أن أقول لك شيئا ما حدثتك به من قبل .

وكان الجو حارا ، وكنـا نائمين عريانين على ملاءة السرير ، هى نائمة على ظهرها ويداها معقـودتان خلف رأسها فوق الوسادة وأنا بجـانبها . فأجابتنى دون أن تحرك شفتيها : حدثنى .

ـ هل تريديننى أن أكتب هذه القصة .

ـ بلا شك .

ـ اذا استمرت الأمور كمـــا هى الآن فلن أنجح فى كتابتها اطلاقا .

ـ وماذا تعنى بقولك « الأمور كما هى الآن » .

فترددت قليلا ثم قلت : اسمعى ، اننا نضطجع معا كل مساء ، اليس كذلك ؟ اننى أحس أن كل القوة التى احتاج اليها لـكتابة هذه القصة تؤخذ منى حين اكـــون معك . واذا استمر الحال على هذا فلن يكون فى مقدورى أن أكتب .

ـ ولكنى أريدك أن تكتب ، اريدك أن تصبح كاتبا .

ـ لماذا .

ـ لأنك كاتب منذ الآن ، ولا يمكن أن تحيا حيـــاة الخمول وتقنع بأن تضطجع معى كل مساء . وان كان ما تقوله صحيحا فلابد أن نغير كل شيء .

ـ كيف .

ـ لن نتصل ببعضنا حتى تتم قصتك ، وعندما تنتهى منها سنستأنف اتصالنا من جديد .

وقبلت فى النهاية عرضها بعد معارضة شكلية ، قائلا لها بأن هذا اقتراحها هى ثم ما لبثت أن قبلتها بحنان وأنا أهمس « سأصبح كاتبا بفضل ذلك » .

وهكذا بدأت كتـــابة قصتى وأنا أحس بأن قوتى الابداعية تزداد يوما بعد يوم . وهكذا حصلت على الالهام بعد الحب . وكنت أكتب كل يوم ما بين عشر صفحات واثنتى عشرة صفحة ثم لا أحس بقية اليوم بأى شيء آخر يهمنى فى حياتى ، ولا حتى محبتى لزوجتى ، وأحسب أنه لو مرضت فى تلك الفترة لما أحسست الا بقلق لمـــا يترتب على ذلك من تعطيل لعملى .

وهكذا استوعبنى عملى حتى أنى لم اول اهتمامى فى ذلك الوقت بحادث بسيط ولكنه هام . ذلك ان بشرتى شديدة الحساسية ، والحلاقة مشكلة بالنسبة لى .

ولهذا فانى لا أستطيع أن أحلق بنفسى بل لابد من استخدام حلاق لذلك . ولهذا فقد نظمت أمر هـذه الحلاقة مع حلاق يأتى لذلك كل صباح ، وقد كان هو الحلاق الوحيد بالقرية . وكان يأتى على دراجته فى تمام الساعة الثانية عشر والنصف بعد أن يكون أغلق دكانه الساعة الثانية عشرة . وكان مجيئه اشارة لى بايقاف عملى . وكان اسمه انطونيو . وهو فى الأربعين من عمره ، وله زوجة وخمسة أطفال ، ولم يكن من أهل القرية بل كان من صقلية . وكانت زوجته تعمل بالحقل ولكنها تترك حقلها يوم السبت لتساعد زوجهـا فى الحلاقة للزبائن الذين يتكاثرون قبل يوم العطلة الأسبوعية .

وعند مجيئه تقبل الخـادم وهى تحمل معها أدوات حلاقتى الخاصة والماء المغلى ، ومع انى لا أحب لحظـة الحلاقة ، الا اننى أحببت هذا الحلاق وكنت أطرق معه مواضيع الحديث كما يعن لى ، فكنت أحدثه عن موسم الحصاد أو أسرته او وطنه صقلية ، واذا انفجرت ضاحكا لسبب ما فانه يبعد الموسى عنى وينتظر حتى انتهى من ضحكتى . ومع انى أوليته كل ثقتى الا اننى احسست أننى لم استطع أن انفذ الى أعماقه ، ورغم انه كان فقيرا وله أسرة كبيرة فلم يكن يبدو عليه ان المال يقلقه ، ولم يتحدث عن أسرته باهتمام ولا بغير اكتراث ، ولم يكن يهتم بالسياسة ولم يكن يعتبر مهنته غير وسيلة لكسب عيشه ، ولهذا قلت انه لابد من وجود شىء غامض فى حياة هذا الرجل .

وبينما كان انطونيو يقوم بالحلاقة لي : كانت زوجتي تاني عادة فى الغرفة وتجلس فى الشمس عند النافذة المفتوحة ومعها علبة المانكير او كتاب . وكنت احيانا ما اقطع على الحلاق عمله لأسألها عن صحتها أو عن الكتاب الذي بيدها . وفى ذات يوم طلبت زوجتي من الحلاق أن يصفف لها شعرها . وسألته ما اذا كانت له خبرة بتصفيف شعر النساء ، فأجابنى بشيء من الفخر ان كل فتيات القرية يأتين اليه ليصففن شعورهن ، فدهشت لذلك ولكنه أكد لى أن أقل الفلاحات شأنا يرغبن اليوم فى تجعيد شعورهن . وغادرنى أنطونيو الى حجرة زوجتي بينما جلست أنا أقرأ كتابا . وبعد ثلاثة ارباع الساعة سمعته يلقى سلامه . وبعد دقائق قليلة جاءتنى زوجتي فى الغرفة فأقفلت كتابى وتطلعت اليها والى شعرها المصفف وأنا أبدى اعجابى . ولدهشتى وجدت أن زوجتي لا تبادلنى مرحى بل دفعتنى بعيدا بحركة اشمئزاز وهى تقول : ليس هذا وقت المداعبة . ولم أفهم شيئا بل قلت لها أن انطونيو قد قام بعمله على خير وجه ، واذا ذهبت الى حلبة الرقص بهذه الهيئة فسيعرض الكثيرون الزواج عليك .

ــ لكنى قلت لك انه ليس مجال الضحك الآن .

ــ لكن لماذا ؟ ماذا حدث ؟ .

ــ لست أريد هذا الحلاق مرة أخرى .

ــ لكن لماذا ، انه يحلق على خير الوجوه ، وليس من الضرورى ان يصفف شعرك مرة أخرى .

فانفجرت غاضبة : لماذا لا تفهمنى ، ان المسألة ليست مسألة مهارته أو عدم مهارته .

ـ اذن ما هى المسألة ؟ .

ـ لقد كان وقحا ؛ لست اريد ان أراه مرة ثانية .

ـ لكنى لا أفهم ، فهو رجل محترم جاد له اسرة .

ـ لقد قلت لك انه كان وقحا وهذا يكفى .

وازاء اصرارى لم تجد بدا من أن تشرح لى كيف أن الحلاق كان يلمس كتفها وذراعها بجسمه أكثر من مرة أثناء تصفيفه شعرها ، وقد لاحظت أن هذه اللمسات لم تكن عفوا بل كانت تخفى وراءها مأربا ، فقد كان أنطونيو يبغى من وراء هذه الحركات اقامة صلة بينه وبينها توحى لها بغرض غير شريف .

ـ ولكن هل أنت على يقين مما حدث ؟ ربما كان ذلك عرضا .

ـ لو أن ما حدث كان مرة واحدة لجاز أن يكون عرضا. أما وقد تكررت عدة مرات طوال الوقت ... كلا لم يكن عرضا .

وترددت أن أسأل سؤالا كان يتردد على شفتى ، ولكنى قلت ضاحكا لأهدئها :

ان هناك ما يغرى القديسين أنفسهم فمابالك بالحلاقين. يا لأنطونيو المسكين . لقد وجدك أمامه جميلة فثار بالرغم منه ، ولا شك أنه كان ينفر مما يحدث له نفورك منه تماما . فلا تلقى بالا الى هذه الهنة . ولست أستطيع أن انظر نظرة جدية الى ما حدث وذلك لأنى على ثقة من براءة أنطونيو .

وتكلمت أخيرا قائلة : ان ذلك كله لا يهمنى . ان ما أريد أن أعرفه هو هل أنت على استعداد لطرده ؟ .

ويبدو أن أنانيتي كانت قد بلغت ذروتها فى هـذه اللحظة . ذلك لأنى أعلم أنه لا يوجد حلاق آخر فى القرية وانا لا استطيع أن أحلق بنفسي ولا أن اذهب يوميا الى حلاق آخر . فلست أحب أن يختل النظام اثنـاء عملى الذى بدأته . ولهـــذا أجبتها بأننى لن اطرد الحـلاق .

وحين غادرتنى كنت مقتنعا بأن رأيى هو الصواب .

والواقع ان حادثه أنطونيو ما استأثرت بانتباهى فى ذلك الوقت على النحو الذى أسردها به الآن ، ولولا الحوادث التى تعاقبت بعد ذلك ماكنت لأذكرها بمثل هذا الاهتمام ، ويبدو أن هـذه هى نفس الطريقة التى بها يكتبون التاريخ ، فمن يكتب التاريخ انما يكتبه وفى ذهنه حوادث معينة قد أثرت على مجراه .

وعنـدما اقبـل انطونيو فى اليوم التالى قام بعمله كالمعتاد . وكان من الممتع أن أدرس الرجل على ضوء جديد . فلاحظت أنه تبدو عليـــه ملامح رب الأسرة النموذجى ، هذا الى أن وجهه كان من القبح بحيث لا يمكن أن يطمع فى أن ترضى به أية سيدة فما بال امرأة فى جمال زوجتى وثرائها . ثم بدا لى أن أسأله قائلا :

ـ لطالما تساءلت يا أنطونيو ما اذا كان رجل مثلك متزوج وله خمسة أطفال ، أن يجـد الوقت والفرصـة لمصاحبة النساء .

فأجاب بغير ان يبتسم ، وهو يتجه نحوى وموسه بيده .

ـ ان الوقت دائما موجود ياسنيور بالديتشى لهـذه

العلاقات بالذات .

. واعترف أني قد توقعت اجابة مختلفة ، ودهشت دهشة واضحة ، وقلت معترضا :

ـ ولكن ألا تغار زوجتك .

ـ كل النساء غيورات .

ـ اذن فأنت لست مخلصا .

فنظر نحوى قائلا : معذرة ياسنيور بالديتشي ، فهذا شأنى الخاص .

واحمر وجهى خجلا ، وكدت أقول له : ان هذا شأنى انا أيضا لأنك ضايقت زوجتى ، ولكنى تمالكت أعصابى قائلا : اننى لم أقصد اساءتك يا أنطونيو .

فأجابنى : كلا بالطبع . ثم اردف قائلا : ان كل شخص يحب النساء يا سنيور بالديتشي واذا أتيح لك أن تنفذ الى أدمغة الناس لرأيت أن لكل رجل امرأة أو أكثر . ولكن أحدا لا يتكلم لأن الناس اذا عرفوا فانهم يثرثرون والنساء ــ كما تعلم ــ لا يثقن الا فيمن لا يتكلم .

وهكذا لقننى درسا فى سرية الحب ، وتركنى حائرا لا أعرف اذا ما كان هو نفسه واحدا من هؤلاء الذين تثق النساء فيهم . ورأيت أن اغير موضوع الحديث ولكن الشك ظل يساورنى حتى انه حين اتى فى العصر الفلاح آنجلو الذى يحاسبنا مرة كل أسبوع ، سألته عن أنطونيو فأفهمنى أنه زير نساء ، وانه لا يتوانى عن معاكسة الجميلة والقبيحة ، المتزوجة والعذراء ، الصغيرة والكبيرة . وعندما انفردت بنفسى أدركت أن أنطونيو رجل داعر . وبدا لى أن الغموض الذى كان

يكتشف انطونيو قد تكشف لى . وهكذا وجدتنى أنافس دون جوان قرويا ، ومع ذلك فان هذا الكشف الجديد لم تكن نتيجته الا أن أكد لى رأيى السابق فيما حدث : فأنا ما ازال اعتبر انه قد اتى ما أتاه بالرغم منه ، وأن ماغنيه مع النساء هو الذى سهل محاولته .

وعندما قابلت زوجتى فى المساء لم أستطع أن أفاتحها بما اكتشفت ، ولكنى كنت أحس بالاثم لما أخفيه عنها ، ولهذا فعندما رأيتها ذات لحظة شاردة الذهن قلت لها : ربما كنت ما تزالين تفكرين فى انطونيو واذا أردت أن نتخلص منه فانى سأفعل .

ولو انها طلبت منى الآن أن أطرده لفعلت . ولكنها اجابتنى قائلة :

— أفكر فى الحلاق ؟ كلا .. كلا ، الواقع أنى نسيت كل ما يختص به .

وهكذا اتى انطونيو فى صباح اليوم التالى ، وحلق لى ثم مضى كعادته . ومضيت أنا فى عملى الذى كان يستوعبنى فى تلك الأيام ويصرفنى عن كل شىء آخر . أما عن زوجتى فانها لم تعد تهبط وتجلس معى أثناء وجود انطونيو .

وأخيرا أتى اليوم الذى كتبت فيه آخر كلمة وآخر سطر فى آخر صفحة من قصتى . وكنت قد ملأت حوالى مئة صفحة فى مدى عشرين يوما ، ولم أستطع الا أن احس بأن هذه الصفحات تحوى أروع ما كتبت فى حياتى . ورأيت أن زوجتى — رغم جهلها بشئون الأدب — هى خير حكم على قصتى ، وكنت أدرك أن بقصتى نقائص لأنى لم أعد قراءتها وذلك لاننى كتبتها فى عجلة

ولكنني لم أشك في حيويتها . وكانت هناك أمامي عقبات اهمها ان المخطوط مضطرب به تقديم وتأخير سيضطرني الى التوقف اثناء قراءته للرجوع الى صفحة غير التى اقرأ فيها مما يقلل من جمال السياق ، ولهذا فقد رأيت أن اقوم بنسخها من جديد على الآلة الكاتبة ، وكنت قد أحضرت آلة كاتبة معى من روما ، ولكنى حين بحثت عن الورق تبين لى أنى نسيته بروما ، وكان لابد من الذهاب الى المدينة المجاورة لاحضار ورق آخر من المكتبة هناك . واعلنت لزوجتى رحلتى التى اعتزمت القيام بها صباح اليوم التالى ، ودعوتها من باب المجاملة لمرافقتى، وأقول من باب المجاملة لأن العربة ما كانت تتسع لكلينا . ولهذا شد ما كان ارتياحى عندما أعلنت اعتذارها وسألتنى :

ـ ومتى ستعود ؟ .

ـ سريعا جدا ، ساعة الغداء على أبعد تقدير .

ـ وما العمل اذا ما أتى الحلاق ؟ .

ـ سأعود بالتأكيد قبل مجيئه . فاذا حدث وأتى قبلى فاجعليه ينتظر ..

فلم تجب . ورأيت أن أغير موضوع الحديث . وكنا جالسين الى المائدة . وقد ارتدت ليدا ثوبا أبيض قصيرا رائعا كما تزينت بجواهرها الضخمة الثمينة . واتجهت نحوها قائلا : أنت جميلة جدا يا ليدا . ولم تجبنى ، ولم يبد عليها شيء من الاستياء ، فوضعت يدى على يدها وهمست قائلا : اعطنى قبلة . فرفعت عينيها ونظرت الى وسألتنى ببساطة لا سخرية فيها : هل انتهيت من عملك ؟ فأجبتها كاذبا : كلا ، ولكنى لا أستطيع

ان أنظر اليك بغير أن احبك وبغير أن أرغب في تقبيلك ، فليذهب عملي الى الجحيم . وجذبتها من ذراعها حتى مالت نحوى . وقاومت قليلا ثم أعطتني فجاة القبلة التي طلبتها ، وقبلنا بعضنا - وقد انقطعت أنفاسنا - فى سرعة وكل منا يعتصر شفتى الآخر فى عنف كأننا شابان لا خبرة لهما بالحب . وفى غمرة السعادة اخبرتها باننى قد انتهيت من قصتى ، ولما بدا على وجهها الفرح ، شرحت لها كيف أنها لا تزال تحتاج الى كتابة على الآلة الكاتبة واننى لا اكون قد أنهيتها حقا حتى انتهى من نسخها . فصاحت فرحة : انها لحظة عظيمة . لابد أن نشرب نخب ذلك .

وشربنا وشربت الخادم معنا . ولست أذكر جيدا ما حدث فى تلك الليلة ، فقد أخذت أشرح لها موضوع قصتى وكيف اتخذته من شخصيتينا ومن زواجنا . وكان التيار الكهربائى ينقطع عادة لأن وقت حصاد الزيتون قد حان ، فكان التيار يتحول الى المعاصر . ففتحت النافذة لأجد الظلام ممتدا أمامنا . وعند ذلك سمعت صوت زوجتى يقول : ألم يحن وقت النوم . لابد وان الوقت قد تأخر كثيرا .

وربما لم تكن زوجتى تعنى الا بأن يذهب كل منا الى غرفته ، أما انا فقد رأيت - فى نشوتى - أنها تدعونى دعوة الحب . فاتجهت نحوها قائلا : القمر رائع ، فلماذا لا نسير قليلا ؟ .

وهكذا خرجنا نسير فى الليل الصامت العميق ، وأنا أضع يدى حول خصر ليدا حيث يأخذ ردفاها فى البروز ، وظللنا نسير حتى شاهدنا منازل الفلاحين فى أعلى التل . وظللنا نسير حتى وصلنا الى الأجران ورفعت

نظرى نحو ثلاث كومات ، وكانت احداهما كومة كاملة مصنوعة من القش الجديد الذى يلتمع فى اصفرار ، والاخرى بنية اللون وقشها أكثر قدما اما الثالثه فلم تكن كومة كاملة ، ورايت القمر يلقى ضوءه فى روعة على هذه الكومات الثلاث . وواتتنى فكرة — أو بالأحرى رغبة — ذلك أن أتسلق الجرن مع لبدا وأن أدعوها هناك دعوة الحب ، على القش فى ضوء القمر . وبهذا اختم عملى ، وفى نفس الوقت أبدأ حياتى الزوجية . والواقع انى كنت جد مشتاق الى ليدا . فأخبرتها برغبتى فى تسلق الكومة فلم تمانع ، ومضينا نتسلقها معا . ولما وصلنا الى أعلى أخذنا نحدق فى الأرض المتسعة أمامنا وأنا أحتضنها من خصرها ، وفجأة جذبتها نحوى وأنا أهمهم : ليدا أليس هنا أفضل من غرفتك ؟ ولكنها قاومت قائلة : ان القش غير نظيف كما أنه شائك وعملك لم ينته بعد . وعندما تتمه سنأتى هنا ليلا .

وضحكت فى خفة ثم نزلت تعدو أمامى ، وعدوت خلفها حتى أمسكتها ثم قبلتها . وأحسست أن ضحكها قد هدأ كل رغبة فى ، فسرت بجانبها وأنا أقبض على يدها بشدة . وعندما وصلنا الى المنزل قبلت يدها وذهبت الى غرفتى وما لبثت أن استغرقت فى النوم . وفى صباح اليوم التالى ركبت فى عربة انجلو وذهبت الى المدينة وهناك اشتريت الورق الذى أريده ، ثم عدت أدراجى ، ومن نافذة المنزل رأيت ليدا تنتظرنى فلما رأتنى صاحت قائلة : لقد تأخرت ، كم الساعة الآن ؟ .

— انها الواحدة . هذه غلطة انجلو ، فقد تركنى وجلس يتسامر مع بعض أصدقائه . سأصعد لأحلق ثم أهبط ثانية .

وصعدت السلم فى سرعة ودخلت مكتبى فرأيت أنطونيو

ينتظرنى . فقلت له : أسرع ، أسرع فالوقت متأخر جداً . ذلك انى كنت شديد الجوع لأنى خرجت بغير أن أتناول افطارى فى الصباح . أما انطونيو فكان يقوم بحركاته ببطء كالمعتاد وأنا أستحثه أن يسرع ، وهو يغطى ذقنى بالصابون ثم يعيد الفرشاة عليها مرة أخرى ، ثم ينحنى نحوى ويبدأ حلاقته ، وبخفته ومهارته أزاح الجزء الأكبر من الصابون عن الخد الأيمن ، وبدأ يفعل المثل فى الخد الأيسر ، وضغط جسده على ذراعى ، ولأول مرة منذ أخذ يحلق لى وجدتنى الاحظ هذه الضغطة ، وتذكرت اتهامات ليدا .

وفجأة ومن خلال اشمئزازى ، أدركت اشمئزاز زوجتى . وانتظرت لحظة آملا أن يبتعد ولكنه لم يفعل ، فتغلب على اشمئزازى فجأة ، وتراجعت الى الوراء بحركة سريعة ، وفى نفس الوقت أحسست بالموسى تقطع جزءا من خدى . وفجأة انصب غضبى على انطونيو لسبب لا أدرى مصدره . وكان الآن واقفا ينظر الى فى تعجب والموسى فى يده وأنا أصيح فيه : ماذا فعلت ؟ هل أنت مجنون ؟ .

ـ ولكن يا سنيور بالديتشى ، أنت الذى قفزت فجأة .

ـ هذا كذب .

ـ ولكن كيف يمكن ان أجرحك بغير أن تتحرك ، ومع ذلك فليس الأمر خطيرا . انتظر لحظة .

وذهب ليأتى بقطعة قطن بعد أن غمرها فى الكحول . ولكنى صرخت فيه وأنا أخطف قطعة القطن من يده : كيف تقول أن الأمر لا خطورة فيه ، انه جرح كبير .

واتجهت نحو المرآة بينما كان الألم النارى الناتج من وضع الكحول يزيدنى غيظا ، فصحت فيه : أخرج

ولا ترنى وجهك مرة اخرى . لست اريد ان اراك مرة اخرى . هل تفهم ؟ .

ــ ولكن يا سنيور بالديتشى .

ــ هذا يكفى .. أغرب عن وجهى ولا تعد أبدا .. أخرج هل تفهم ؟ .

ــ وهل آتى غدا ؟ .

ــ لا غدا ولا أى يوم آخر .

ــ أمرك .

واتجه نحو الباب واختفى .

وعندما أصبحت وحدى بدأت تخف حدة غضبى . فأخذت الفوطة ومسحت بقايا الصابون التى كانت ماتزال على وجهى ووضعت قطعة أخرى من القطن مبللة بالكحول واتجهت الى غرفة الطعام حيث كانت زوجتى تنتظرنى . ومضينا نأكل فى صمت ، ثم قلت لها : هل تعرفين ، لقد طردت أنطونيو ؟ .

وبغير أن ترفع عينيها عن صحنها سألتنى : وماذا ستفعل فى أمر حلاقتك ؟ .

ــ سأحاول أن أحلق بنفسى . لست أدرى ما الذى حدث له اليوم . لقد جرحنى جرحا فى طول أصبعى .

ــ وهل وضعت له دواء .

ــ نعم . والواقع أن الجرح كان مجرد سبب لطرده . ذلك أننى لم أعد أحتمله . لقد كنت على حق .

ــ ماذا تعنى ؟ .

ورأيتنى أذكر لها حديث الفلاح آنجلو عن أنطونيو ، ولكن بعد أن غيرت تاريخه فجعلته صباح اليوم .

فغيرت مجرى الحديث قائلة : وهل وجدت الورق ؟

فأجبتها : ليس ما أريده تماما ، ولـكنى سأبدأ بنسخ القصة اليوم . ولاحظت أن ذهنها شارد .

وعندما غادرتنى لتستريح ، ذهبت الى مكتبى . وهناك حاولت أن أنسخ الصفحات الأولى من قصـــتى ، ولكنى كنت مضطربا : أضع الكربون بالمقلوب مرة وأخطىء فى الحـروف مرة أخرى . فذهبت الى السرير لأسـتريح بدورى . وعندما استيقظت كانت الغرفة مظلمة ، فلما خرجت منها رايت أمامى زوجتى ، فتناولنا الشاى معا ثم خرجنا نتمشى معا بين الحقول . وجلسنا فى مكان معشوشب وزوجتى تقص على قصصا عن مغامراتهـــا الغرامية قبل زواجى بها . وأخيرا عدنا وصعدت زوجتى لتغير ملابسها بينما جلست أنا أستمع الى رقصـــة من رقصات موتزار . ورأيت ليدا أمامى فى ثوبها الأبيض القصير الذى كانت ترتديه الليلة الماضية . ثم أوقفت الجراماقون وقـالت : اذن ستبدأ طبـع قصتك هـذا المساء ؟ ونظرت الى نفسها فى المرآة وهى ترتب باقة من الورد فى شعرها . فأجبتها : نعم ، هذا المسـاء سأعمل الى منتصف الليل على الأقل ، فانى أريد الانتهاء منها فى بضعة أيام . ولاحظتها تسير وهى تقطع الغرفة جيئة وذهابا فى قلق ، فسألتها : ماذا بك ؟ فأجابت فى نغمة قلقة : اننى جوعانة . ألست جوعانا أنت أيضا ؟ .

ـ نعم ، ولكنى لا أريد أن آكل كثـــيرا والا فسرعان ما يراودنى النعاس .

ـ وما رأيك فى هذا الثوب ؟ .

ويبدو أنها أرادت بهذا السؤال أن تغير الحديث . فأجبتها :

ـ انه رائع ، أديرى ظهرك لأراه جيدا .

وعندما استدارت لاحظت أنها لم ترتد المشد هذا المساء ، وكانت عادة ما ترتديه لتحتفظ برشاقتها . ولم أكن احب هذا المشد الذى كان واضحا للعيان وكان صلب الملمس ، فقلت لها : انك لم ترتدى المشد هذا المساء . فأجابت : انني لم أرتده لأنني برمت به ، ولكن كيف لاحظت ذلك ؟ فأجبتها : لأنك كنت ترتدينه بالأمس .

وفى هذه اللحظة أعلنت الخادمة أن العشاء قد أعد ، فجلسنا نأكل ، ولكنى لاحظت أنها لا تأكل . فلما سألتها اجابت بأنها تحس أنها ليست على ما يرام وتود أن تذهب الى غرفتها . وسألتها ما اذا كانت تحس بسخونة فأفهمتنى أنها تحس بتعب نسائى . فطلبت منها أن تأتى وتقبل لى بشفتيها الصفحة الأولى من قصتى لاتفاءل بقبلتها . وبعد أن قبلت الصفحة ودعتها . ثم مضيت الى عملى . ولكنى كنت كلما حاولت أن أقوم بالطبع احسست بتفاهة عملى . وفى غمرة اليأس فكرت أن أنادى على زوجتى . وفتحت باب المكتب وعبر الممر ووجدتنى أمام بابها . وطرقت الباب ولكنى لاحظت انه مو زوب فقط فدهشت لسبب لا أدريه من هذا الوضع الحذر للباب ، ولم أجد ردا على طرقاتى ، فدفعت الباب بعد أن انتظرت مدة مناسبة ودخلت .

وكانت الغرفة مظلمة فأضأتها ، ووجدت السرير خاليا ولاحظت أن الغرفة تعبق برائحة السجاير وأن بقايا السجاير ما تزال فى المطفأة مما يدل على أن زوجتى غادرت غرفتها منذ لحظات . وانتابنى شعور بالمضايقة ، فاذا كان النوم لم يواتها ورغبت فى الخروج فلماذا لم تطرق بابى وتخبرنى بذلك ؟ ولماذا خرجت وحدها ؟ وخرجت بدورى فى الخلاء أمام الباب . وكان ضوء القمر

قد ذكرنى بالليلة السابقة التى امضيتها مع زوجتى . وفجأة عاودتنى الرغبة فى أن أحقق الآن ما لم استطع بالأمس تحقيقه . وبينما انا سائر اذا بى ارى ليدا ، والواقع انى لمحتها فقط ، لمحت ثوبها الأبيض وعنقها العارى وشعرها الذهبى ، ثم اختفت وتأكدت انها ذاهبة تجاه ابنية المزرعة ، فانتابتنى النشوة لأنها تتجه ناحية الجرن ، ناحية المكان الذى أريد أن أتمتع فيه معها كأنما هى على موعد وهى لا تدرى أن هذا الموعد معى .. ووصلت الى الأبنية وهى تكاد تعدو ، وعندما وصلت الى هناك بدورى وقفت ، وقد أذهلنى احساس داخلى لم أستطع له تفسيرا . واستطعت أن أراها الآن تتسلق المنحدر نحو الجرن حيث تقف كومات القش الثلاث .

وكانت تتسلق متشبثة ببعض الأعشاب النامية ، حتى لقد خيل لى أنها عنز تتسلق منحدرا بحثا عن الطعام . وحين وصلت الى القمة ظهر شبح رجل منحنى أمسك بذراعها وجذب جسمها كله تقريبا . وعندما التفت الرجل ليسندها عرفت فيه أنطونيو .

وادركت الآن كل شيء . ولم أكن أود مشاهدة المنظر ، وبالرغم من ذلك فقد وقفت أحدق فى شراهة بعيون قلقة . كانت ارض الجرن كأنها مسرح مرتفع أضاءه القمر . ورأيت الرجل يحاول ان يجذبها نحوه وهى تقاوم، وسقط ضوء القمر على وجهها . ثم لمحت فمها مفتوحا نصف فتحة فى ضحكة فاترة تدل على الاشمئزاز وعلى الرغبة معا . وأوحى لى جسدها المنتصب برقصة . وكان أنطونيو ما يزال يحاول أن يجذبها نحوه . ووقفت على اطراف أصابعها . وعاودتنى فكرة الرقصة من جديد .

وسقط ضوء القمر عليهما ، وبدا كأنما يقومان برقصة

معا ، وهو منتصب ساكن وهى تدور حوله ، رقصة بلا موسيقى وبلا قواعد ، ومع ذلك فهى تخضع لوقع مجنون خاص . وأخيرا حملته على أن يفقد توازنه ، واستجاب هو لذلك برغبته ووقعا معا مختفيين فى احدى الكومات . وأسفت لاختفائهما . ولقد لاحظت أننى بالأمس رغبت فى أن استمتع بزوجتى على القش وفى ضوء القمر ورأيت الآن أننى كنت على صـــواب ، ولو أن شـخصا آخر قد احتل مكانى فى اللحظة الأخيرة ، وقد استطعت بفريزتى ان أتكهن بجمال هـــذه الضـــمة ، ولـــكن الضمة تمت بدونى .

ورجعت أعدو الى الفيللا وأنا أفكر فى سباق الحوادث . لقد كانت زوجتى مخلصة فى غضبها من الحلاق ولو أن غضبها المفرط كان يخفى وراءه بداية رغبة وانجذاب لا شعوريين . والواقع أنها حين طلبت منى أن أطرد الحلاق انما كانت تحاول مقاومة نفسها أكثر ممـــــا كانت تحاول مقاومة الحـــلاق ، ولـــكنى ـ بأنانيتى ـ لم أدرك ذلك ولم أفكر الا فى راحتى ، وتقبلت هى الوضع بدافع من ارادتها الطيبة . ولكن الرجل الذى كانت تحبه لا شعوريا ظل يأتى المنزل يوميـــــا ، وفى أثناء زيارتى للمدينة أعطيتها الفرصة لتعرف حقيقة احتقارهاللحلاق . فلقد أتى قبل وصولى وتفاهمت معه بطريقة ما تفاهما فجائيا وتاما ونهائيا وتواعدا على اللقاء مساء فى نفس المكان الذى حاولت أن أنام معها فيه . وكانت على ثقة من أنى سأكون مشغولا بعملى فى ذلك الوقت ، وكانت تقص على قصص مغامراتها الغـــرامية الســـــابقة بعد أن أعاد لها ذكرياتها هذا التواعد على اللقاء مع أنطونيو . وفى المساء حرصت ألا ترتدى المشد حتى تكون أكثر خفـــة وأكثر

تجردا . ولم تخف قلقها أثناء تناولنا العشاء ؛ ولابد أننى كنت أعمى ، لأننى لم أدرك أن سبب انعدام شهيتها هو تلك الشهية الأخرى التى كانت لها السيطرة. وخوفا من ألا أتركها فى مثل هذه الحالة حملتنى على الاعتقاد بأنها تعانى اضطرابها الشهرى . وبينما أغلقت على نفسى باب مكتبى كانت هى تنتظر ثلاث ساعات متواليات وهى تدخن سيجارة بعد أخرى . وعندما حان الوقت مضت تعدو الى موعدها،وكانت تلك الرقصة التى شاهدتها هى الانفجار النهائى لشهوتها العنيفة التى كبتت طويلا .

ولقد لاحظت أن فى سلوك زوجتى تصرفات مؤقتة تظهر فجأة من أماكن مجهولة ثم تختفى مرة أخرى كأنهار الصحراء ، فأنا لم أخبر نيدا بمعرفتى بعلاقتها بأنطونيو ، فعد هذا دليلا آخر على ضعفى وعدم قدرتى وعجزى . لقد كان حصولى على كتابتى وعلى زوجتى من خلال الشفقة والعطف والاحسان والارادة الطيبة ، ولا يمكن لهذه العواطف أن تؤدى الى الشعر أو الحب ، بل انها تؤدى الى موضوع انشائى مزخرف ، او مجرد سعادة فاترة ، فليس من نصيبى أن أقوم بعمل رائع ، ولا من نصيبى تلك الرقصة على الأرض بالجرن . لقد قدر لى ان أكون رجلا عاديا الى الأبد . وفكرت أن اكتب خطابا الى زوجتى ثم أنتحر ،ولكنى وجدت ان دموعى قد بللت ما كتبت فشوهته . وادركت أنه لن تكون لدى الشجاعة أبدا لارساله . وفى هذه اللحظة أدركت ضعف شخصيتى وعجزها وشذوذها وأنانيتها وقد تقبلت شخصيتى هذه بكاملها . وفكرت ان أغير من شخصيتى ما دمت قد عرفتها الليلة ، وهدأتنى هذه الفكرة وقمت

وغسلت عيني المحمرتين ووقفت في النافذة ، فلمحت زوجتي مقبلة كأنها حيوان برى صغير ، كثعلب أو عرسة عائدة الى حجرها بعد قيامها بغارة على عشة دجاج . ورفعت عينيها نحوى حتى التقت بعيني ، فخفضت رأسها في الحال ودخلت المنزل ، وتراجعت انا بدورى من النافذة وذهبت لأجلس على الكنبة .

وبعد لحظة فتح الباب ودخلت منه . وأدركت من هذه الحركة العدائية لونا من الدفاع عن نفسها . ولم اتمالك الا أن أبتسم . وسألتني وهى ما تزال ممسكة بمقبض الباب :

ماذا تفعل .. ألا تعمل ؟ فأجبتها بغير أن أرفع راسي .. لا . فقالت توضح لي شيئا لم أستفسر عنه : لقد خرجت أتمشى في المنتزة ، لم أستطع النوم ، لكن ماذا بك ؟ فبذلت جهدا وأنا أقول لها : لقد اكتشفت هذه الليلة اكتشافا .. اكتشافا حاسما .. سيكون له أثر كبير في حياتي .

ونظرت اليها .. كانت واقفة بجوار المكتب وهي تحدق في الآلة الكاتبة مقطبة وتنظر نظرة غاضبة ثم سألت في صوت مرتفع : أى اكتشاف ؟ اذن فقد كانت على استعداد للمجادلة، مما ذكرنى ببعض الحشرات التى التى تتأهب دفاعا عن نفسها فى حالة الخطر وذلك بأن تقف على أرجلها الخلفية . فأجبتها : لقد قرأت قصتى ، انها لا تستحق شيئا . لن أكون كاتبا على الاطلاق .

لقد فكرت منذ ساعة أن أقتل نفسى .

ولاحظت انني كنت أفكر فيها طوال الوقت ، فرداءة القصة لا تهمني .. وشعرت بطعنة حادة من الألم عندما لاحظت آثار فعلتها مع انطونيو . فشعرها كان مضطربا،

وكان هناك بعض القش فيه ، وباقة الورد لم يعد لهـا وجود .

وادركت انها ارادت ان تظهر أمامي بهذا المنظر فقد كان باستطاعتها ان تذهب الى غرفتهـــا اولا وتغير من هيئتها . وأحسست بألم جديد لهـــذه الفكرة بينما كانت تقول : تقتل نفسك ؟ هل انت مجنون ؟ ولمجرد قصة لم تنجح في كتابتها ؟ وترجمت ذلك عقليا الى قولها : لمجرد لحظة نزق ؟ لأنني لم أستطع مقاومة اغراء عارض ؟ ولكنى أجبت : أنا أعرف أني فاشل ولدى البرهان على ذلك فى هذا المخطوط . وعندما قلت ذلك أشرت اليها بلا ارادة بدلا من أن أشير الى المخطوط . وادركت هـــذه المرة وخفضت عينيها فى اضطراب . وسمعتها تسأل فى صوت مرتعش على غير توقع : لماذا انت فاشل ؟ انك لم تفكر فى أذن .

ـ وماذا تستطيعين عمله من أجلى ؟ أنت لا تستطيعين أن تعطينى الموهبة التى أحتاج اليها .

ـ كلا ، لا أستطيع ، لكنى أحبك .

ـ وأنا أحبك أيضا ، ولكنى أخشى الا يكون هذا كافيا لتستمر حياتى .

وقالت بصوت عاطفى :

ـ هنا انهض . هل تعلم ماذا سنفعل الآن ؟ سأذهب لأخلع ملابسي واذهب الى السرير وتستطيع اذ ذاك أن تأتي وتقرأ على قصتك . وسنرى اذا كانت رديئة حقا .

وعندما ذهبت الى مكتبى كنت أقول لنفسى ان ارادتها الطيبة تتغلب الآن ، ولا شك أنها مخلصة فيما تقول . سأقرأ لها قصتى فان امتدحتها فسأعلم أنها تخدعنى طوال الوقت وستظل تخدعنى . أما اذا رات غير ذلك

فسادرك انها تحبني ولو كان هذا النوع من الحب الذي يعتمد علي الارادة الطيبة . وتساءلت أي الطرفين عساها تختار . انها اذا قالت بأن قصتي جيدة فسأصرخ فيهـا قائلا : ان قصتي رديئة . وأنت لست الا عاهرا .

وانتهيت أخيرا من قراءتي وسمعتها تقول : ربما كنت على حق ، فالقصة ليست رائعة ولكنها ليست بالرداءة التي تتصورها انها شيقة لمن يسمعها .

وارتحت الى اجابتها ارتياحا عظيما وأنا أقول لها : الم اقل لك ذلك ؟ .

ــ ولكنها مكتوبة كتابة جيدة .

ــ ولكن الكتابة الجيدة لا تكفي .

ــ ربما لم تجهد نفسك فيها جهدا كافيا . اذا أعدت كتابتهـا ــ ربمـا أكثر من مرة اذا تطلب الأمر ذلك ــ فستصل فى النهاية الى ما تريد .

لقد كانت تعتقد أن الارادة الطيبة لها قيمتها فى الفن أكثر مما للغريزة . فأجبتها : « ولكنى أحتاج الى الالهام ، فبغير الالهام لا أستطيع شيئا » .

ــ وهذا هو الخطأ فى تفكيرك . ان الأمور لا تتم بمعجزة فلابد من العمل والتعب .

واستمر نقاشنا مدة حتى قلت لها فى النهاية : لن نتكلم فى هذا الموضوع بعد الآن .

وقبلتها قبلة المساء ثم ذهبت الى مخدعى ونمت نوما عميقا ، كنوم طفل ضربه والده لخطأ اقترفه وصرخ وبكى مدة طويلة ثم عفا عنه . وفى الصباح التالى قمت متأخرا ، وحلقت لنفسى ، وبعد الافطار اقترحت على زوجتى أن

نتمشى قليلا قبل الغداء ، فوافقت وخرجنا معا حتى وصلنا الى أطلال كنيسة صغيرة ومضينا نتسلقها . وبينما نحن نشاهد المناظر المختلفة التفتت ليدا نحوى تقول :

ـ اسمع ، لقد كنت افكر الليلة الماضية فى قصتك ؛ انى أعرف سبب ضعفها .

ـ ما هو .

ـ لقد أردت أن تعبر عنى وعنك ، اليس كذلك ؟ ؛

ـ نعم الى حد ما .

ـ ان وقائعك التى بدات بها كانت خاطئة . أعنى ان الانسان يحس أنك حين كتبت القصة لم تكن تعرفنى المعرفة الكافية ، ولا تعرف نفسك كذلك . ربما تسرعت فى الكتابة عنا وعن علاقتنا ، ولا سيما عنى أنا ، فلم تظهرنى على حقيقتى . لقد تساميت بى كثيرا .

ـ وهل ثمة شىء آخر .

ـ كلا لا شىء آخر ، أظن أنه بعد قليل ، حين نعرف بعضنا أكثر ، يجب أن تعيد نظرك فى القصة مرة أخرى ، كما قلت فى الليلة الماضية وأنا على ثقة أنك ستخرج منها بشىء جيد .

فلم أقل لها شيئا ، كل ما فعلته انى ربت على يدها . ثم همست بهدوء :

ـ سيستغرق ذلك وقتا طويلا .

من أدب الرحلات

مذكرات شاب مصرى يغسل الأطباق فى لندن

أول صلة لى بأدب الرحلات كانت عن طريق سلسلة مؤلفات المرحوم محمد ثابت وكانت بعنوان « جولة فى ربوع ... » ثم يأتى ذكر البلد أو القارة . ومن خلال هذه السلسلة كان أول تعرفى على دول غير مصر ، وكنت معجبا فى سن مبكرة بهذا الرحالة الذى يطوف ببلاد الدنيا مما غرز فى نفسى هوايتين : أولاهما قراءة أدب الرحلات قديمها وحديثها ، فقرات رحلات لبعض قدامى العرب وبعض الأجانب ، ومنها رحلات الى بلادنا ، وفى مثل هذه الرحلات الأخيرة أنت لا تتعرف على بلدك بقدر ما تتعرف على رأى الرحالة فيه . أما الهواية الأخرى فكانت اثارة الشوق الى القيام برحلات مماثلة .

وكتاب حسين قدرى يوضح ما تطور اليه أدب الرحلات فى أدبنا المعاصر ، فبالرغم من أن مؤلفه قام بعدة رحلات سابقة الى لندن ، الا انه قام برحلته الأخيرة بهدف تدوينها . وهو لا يقصد تعريفنا ببلاد الانجليز ،

بل انها رحلة أكثر تخصصا ، انه يريد أن يقدم لنا عاصمة تلك البلاد من خلال تجربة طالب مصرى لم يذهب للسياحة والفرجة ، بل ذهب للعمل خلال شهور أجازته الصيفية ، وقد تطلب ذلك من المؤلف أن يتخلى عن مهنته الحقيقية وهى مهنة الصحافة ، وأن يتنكر فى شخصية طالب مصرى ليمر بالتجربة كاملة ويقدمها نقرائه . وهى وان كانت رحلة مفيدة للطالب المصرى خاصة ، فانها يمكن أن تكون رحلة ممتعة للقارىء العربى عامة . ومن هذا نرى كيف أصبح أدب الرحلات أكثر تخصصا بحيث يقتصر على مدينة واحدة ومن وجهة نظر فئة معينة ، يتقمص المؤلف شخصيتها خصيصا لكى يحقق هدفه مما يكتب ، وان كانت قدرة الكاتب الأدبية وثقافته الرحبة استطاعت أن تجذب اليه جمهور قراء أوسع .

فالرحلة تصطنع فى بدايتها ـ على الأقل ـ اسلوب القصة . فهى تضعنا فى لندن مباشرة بعد مقدمة وجيزة يقدم لنا فيها المؤلف نفسه : حسين قدرى مع مجموعته المكونة من ثمانى طلبة وطالبتين ، المفروض انه أستاذهم . وبعد أن تنتهى الفصول الثلاثة الأولى ونحن نرافق المجموعة فى مغامراتها للبحث عن عمل ، نعود فى الفصل الرابع الى ما قبل ذلك كله ، فيذكر لنا المؤلف كيف نشأت لديه فكرة الرحلة اصلا منذ ثلاث سنوات ، ثم ما حدث فى سبيل تنفيذ الفكرة حتى وجد نفسه فى النهاية فى لندن فى الفندق الذى يعمل فيه « بورتر » وترجمتها حمال أو بواب .

أما أسلوب الكتاب فيتميز بالبساطة والتشويق ، واستخدام اللفظ العامى حين يكون اوقع من استخدام

الفصحى فى بعض المواضع القليلة ، مثـــال ذلك حين يتحدث عن اختلاط الجنسين على بعضهما بحيث لم تعد تعرف الولد من البنت فيقول : « البنت عارية والولد ناعم وبايش وانثوى ، والميــــاعة اقتسمها الطـــرفان بالتساوى ... كلاهما مايص ومايع وسايح ونايح ، ولو وقع على الأرض ماحدش حيعرف يلمه ويرجعه زى ماكان (ص ١٠٩) . ومثل قوله : « ناس سهلين جدا أو بسطاء جدا فى تعــاملهم دون عقــــد ولا فيونكات ولا كلاكيع (ص ١٩٩) . كما انه يستخدم اللفظ الذكى فى أكثر من موضع مثال ذلك وصفه مجموعة من الشقراوات بأنهن كن يدخلن الفنـــدق « زرافات وغزالات » اشارة الى التعبير العربى المعروف « زرافات ووحدانا »» . وواضح ان كلمة زرافات الأولى جمع للحيـــوان المعروف باسم الزرافة أما زرافات الثانية بمعنى مجمـــــوعات بضم الزاى . اما الفكاهة فهى تشيع جوا من المرح من أول الكتاب الى آخره .

ومن الطبيعى أن يقارن كل من سافر الى بلد أجنبى بين بلده والبلد الذى سافر اليه . ولهذا فان صيحة مؤلفنا الأثيرة من حين لآخر تكون حينا « يا حلوة يا بلدنا ، يا رخيصة يا بلدنا » . وتكون حينا آخر « يارب يارب يارب ، قبل أن أموت أرى بلدنا وقد وصلت الى واحد على المليون من هذا النظام وهذا الانضباط » . ومعنى هذا ان حسين قدرى يحاول ان يقف موقفا موضوعيا ، وان كان جانب الاعجاب أكثر من جانب النقد ، ومعظم الاعجاب ينصب على النظام والدقة والنظـافة والجمال والأمانة . اما جانب النقد فلعل أكثره ينصب على جانب التحرر الجنسى الذى زاد عن حده الى درجة أن يكون

من مهمة الفنـدق تدبير الترفيه الجنسى تلبية لرغبة نزلائه ،

ومن المهم ملاحظة ان النظام والدقة ليسا نتيجة الوعظ والارشاد بقدر ما هو نتيجة لتنظيم تكنولوجى لفرض هذا النظام . بحيث يصبح فى النهاية عادة تستمر حتى فى غياب هذه التكنولوجيا . من أبرز الأمثلة على ذلك الضمانات الموضوعة فى الفنـادق حتى لا « يصهين » المنوط بهم حفظ الأمن فى الفنادق ــ لا سيما ليلا ــ كسلا أو انشغالا . فالمكلف بحفظ الأمن يحمل معه ساعة ذات شكل خاص تشبه المنبه بداخلها شريط ورقى يشبه شريط الآلة الـكاتبة وبها فتحة تتسع لمفتاح معين ، وفى أرجاء الفندق الذى يعمـــل به رحالتنا اثنان وعشرون مفتاحا موزعة من هذا النوع ، وكل مفتاح محفور عليه رقم مسلسل من ١ ــ ٢٢ . يوضع المفتاح فى الساعة ويديره الحارس فيختم الرقم المحفـــور على أسنان المفتاح على الشريط الورقى الموجود داخل الساعة كمـا يختم كذلك الوقت الذى تم فيه المرور على هذا المفتاح . وهذه المفاتيح موزعة على أرجاء الفندق بتسلسل خاص بحيث أنه عند الانتهاء من ختم المفاتيح الاثنين والعشرين جميعها يكون قد تم المرور على كل شبر فى الفندق . ويتم تنفيذ هذه الجولة ثلاث مرات كل ليلة .

وعنـدما تعرض المؤلف لموضـوع أكشـاك التليفونات العمومية ، وكيف أن فى كل شارع وفى كل محطـــة مترو عددا من هذه الأكشاك المتقاربة وكيف أنه حين « يعصلج » رقم معك فانك تطلب رقما مثل رقم ١٦ ، ١٨٨ فى القاهرة ، كل الفرق انهم يردون عليك هناك على الفور وبأدب شديد ويوصلك بالرقم المطلوب ويشكرك

فهو قبل أن يخرج من الخط ولا ينتظر حتى لشكره أنت ، ثم يعلق قائلا : عقبالنـــا يارب فى التليفونات ، وفى الأدب .

ولئن كانت الرحلة الى الخارج تجربة مفيدة بغنمها وغرمها لشبابنا ، فقد اتضح من حديث سفيرنا فى لندن (كمال الدين رفعت وقتئذ) مع حسين قدرى أن معظم شبابنا يذهبون الى لنـدن و (أوروبا بوجه عام) جريا وراء الجنس أو المال ، ولكن ما لا يخطر لهم على بال هو أن يستفيدوا اسـتفادة ثقـافية : علمية وفنية ، فـلا يفكرون فى زيارة المتاحف والأماكن الأثرية والتى بدونها تكون الاستفادة من الرحلة فى أضيق الحدود .

ان كتاب مذكرات شاب مصرى يغسل الأطباق كتاب ممتع حقا ، وهو تشويق وتحذير معا لشبابنا اذا هموا بالسفر الى الخارج ، فهو يدلك على ما فى هذه الرحلات من متع وفى الوقت نفسه ينبهك الى أن الحكاية ليست بالسهولة التى يظنها البعض وان كانت ليست بالصعوبة التى يظنها البعض الآخر ، انما هى تحتـاج الى ارادة ولباقة واستعداد قبل السفر بسلاحى اللغة والثقة فى النفس .

لقد أمتعنى كتاب حسين قـدرى بجـدية موضوعه وخفة دم أسلوبه ، وفى مكتبة بيتى زاوية أضع فيهـا الكتب التى يمكن أن أرشـحها للقراءة لأى شخص غير متخصص وأنا واثق انهـا ستحقق له هدفين يندر أن يجتمعا : المتعة والفائدة . ولقد وضعت « كتاب مذكرات شاب مصرى يغسل الاطباق فى لندن » لحسين قدرى بين هذه المجموعة من الكتب ، مهنئا نفسى بصدوره فى مكتبتنا العربية .

راكبان على السفينة

حسين قدرى يمثل الحلقة المعاصرة فى سلسلة رحالتنا الأدباء ، وللرحلة تاريخ طويل فى مكتبتنا العربية كانت اساسا لكثير من الاكتشافات الجغرافية التى يدين بها العالم للعرب ، كمـــا كانت وسيلة للتعرف على شعوب جديدة ذات عادات مختلفة أوحت لأدبنا الشعبى بصفة خاصة بكثير مما يتميز به على نحو ما نجد فى القصص البحرية فى ألف ليلة وليلة . ويجىء القرن العشرون فنقرأ لهؤلاء الرحالة الرواد أمثال المرحومين أحمد حسنين باشا ومحمد ثابت ثم الدكتور حسين فوزى أطال الله عمره ، ثم تأتى فى نهاية السلسلة حسين قـدرى ليمثل لنـــا الرحالة الأديب فى صورته المعاصرة . فللصحافة أثرها الكبير فيما يقوم به من رحلات وفيما يكتبه فيما بعد عن هذه الرحلات ، وهو أثر لم يكن له وجود فى رحـــلات روادنا السابقين ، فرحلات حسين قدرى ــ وان كانت بدافع داخلى كما كانت عند السندباد وكأنما يقول مثله بعد كل رحلة : فاشتاقت نفسى الى السفر والفرجة ... والنفس أمارة بالسوء ــ أقول انه بالرغم من هذا الدافع الداخلى الذى يبدو انه لا يقاوم عند البعض الا انها فى النهاية تصبح بتكليف من المجلة التى يعمل بهـــا ، ومن ناحية أخرى فان أثر الصحافة يبدو فى اســـلوب

الرحلة عند كتابتهـــا لأنه ينشرها على قراء مجلته على حلقات أولا ثم يجمعها فى كتاب فيما بعد . وقد سبق لحسين قدرى أن قدم للمكتبة العربية عدة رحلات هى : رحلة الى جزر الكناريا ، دار المعارف ١٩٧٣ ــ مذكرات شاب مصرى يغسل الأطباق فى لندن ، سلسلة اقرأ ، دار المعـارف ١٩٧٤ ـ رحلة الى دولة ترانزســتور ، دار الشعب ١٩٧٤ . وهو فى كل رحلة يحاول أن يكون موضوعها مبتكرا لم يسبقه اليه أحد ، كما يحرص على أن تلقى رحلته ضوءا على جانب لولاها لظل مجهولا لدى قرائنا .

فموضوع رحلتنا ــ راكبان على السفينة ــ هو صيد السمك فى مناطق اعالى البحار فى المحيط الأطلنطى عبر البحـر الأبيض المتوسط ، وهى رحلة استغرقت ثلاثة شهور تبدأ من الاسكندرية وتنتهى فى الاسكندرية مرورا بجزر الكناريا الأسبانية الجنسية الافريقيـة الموقـع ، وكانت الرحلة على سفينة اسمها برنيس احـدى سفن ثلاث تابعة للشركة المصرية لمصايد أعالى البحار .

وتتسم مقدمة رحلتنا بالتقديم والتأخير ، فهى تبـدأ ببداية الرحلة الفعلية على ظهر السـفينة ، فاذا اطمأن الى ان قراءه أصبحوا معه على ســـفينته رجع بنا الى الوراء شهرين ليخبرنا كيف تم تدبير هذه الرحلة ، حتى اذا أشبع فضولنا عاد ستأنف معنا رحلته الغامضة .. الى المجهول على حد تعبيره .

وتتكشف لنا الرحلة عن أول سمة تتسم بهـا وأول هدف من أهدافها وهو **النقد** ، النقد المقنع حينا والسافر أحيـــانا أخرى . فمـا أن تركت السـفينة الرصيف وبدأت تتحرك متراجعة الى الخلف بظهرها لتعدل نفسها

وتتجه بمقدمتهـــا فى اتجاه البحر حتى تعطلت فجـــأة آلاتها ، وكاد يتسبب ذلك فى كارثة اصطدامها بسفينة اخرى أجنبية راسية فى المياه . وكما تعطلت الماكينات فجأة عادت الى الدوران فجأة ، ولم تـكد تمضى دقائق اخرى حتى تعطلت مرة ثانية مما اضطر القبطان الى اصدار الأوامر بأن تعود السفينة الى داخـل الميناء حتى يتم فحص الماكينات واصلاحها . بينما خرج كبير المهندسين العجوز من غرفة الآلات يصيح راجيا أن تستمر السفينة فى طريقها الى البحر بدعوى أن اصـــلاح العطب لن يستغرق أكثر من عشر دقـائق أخرى ؛ ثم اتضـح أن الاصلاح استغرق اثنتى عشرة ساعة كاملة .

وان القارىء ليتساءل كيف يمكن أن يحدث هـــذا العطل والسفينة لم تكد تغـادر الميناء ؟ وكيف يطمئن ركابها الى رحلة طويلة فى أعماق المحيط وهذه بدايتها ؟ ولماذا لم يتم الكشف عليها واصلاحها بالدقة المطلوبة من قبل ؟ على أننا سنجد عشرات العيوب ــ والتى سببها الاهمال وعدم الاكتراث ــ فيما بعد .

من ذلك مثلا أن السفينة عليها اثنان وثمانون فردا وبها قاربان فقط للنجاة مفروض ان يتسع كل منهمـا لنصف هذا العدد ، وهى قوارب نجـــاة ساذجة ذات مجاديف يدوية فى ســـفينة حديثة عمرها سنتان فقط تعمل بالمحيط الاطلنطى فى أعالى البحار فى القرن العشرين على حد تعبير المؤلف عن دهشته .

والسفينة التى خرجت فى رحلة صيد تتكلف واحدا وخمسين الفا من الجنيهات والمفروض أن تعود بحصيلة سمك ٦٨٫٢٠٠ جنيـه ، خرجت وليس بهـا شبكة صيد على أساس أن شبكة صيد ستصلها قبل أن تصل

الى جبل طارق`، ومع ذلك فقد وصلتهم الشبكة متأخرة اربعة أيام كل يوم تتكلف ٨٥٠ جنيها أى ٣٤٠٠ جنيه ضاعت على السفينة فى انتظار الشبكة التى حصلت عليها اخيرا « شحاتة » من احدى السفن الأجنبية القريبة .

وتقوم السفينة وبها مئة طن من المياه العذبة ، ومع ذلك تعود وعليها تسعون طنا ، ولا تصرف الميـاه الا بالتقتير الشديد الذى يضايق ركابها دون سبب معقول حتى اصبح الاستحمام بل الشرب نفسـه اخـيرا ترفا يتعذر الحصول عليه .

كذلك خرجت السفينة الى الصـيد وهى تنقصها ماسورة معينة صـغيرة وان كان دورها كبيرا ، فهى الماسورة التى يوصل على طريقها غاز الفريون ٢٢ الى ثلاجات تجميد السمك ، ويغير هذه الماسورة لا يمـكن توصيل الغاز الى الثـلاجات وبالتالى لا يمكن تثليج السمك .

وهكذا عشرات العيوب التى يكتشفها حسين قدرى أثناء رحلته ويشير اليها بل ويفرد لها صفحات وهـو يعددها واحدة بعد الأخرى . وليس كل النقد منصبا على السفينة التى يركبها بل ما يتضح له من عيـوب لا تظهر الا فى رحلة كهذه وهو على مثل هذا البعد من الوطن . فهو يفتح الراديو ويسمع احد مطربينا يسرح بحبيبته وبأن الهوى هواه وانه مشغول جدا ببناء قصر عال من أجلها . ويعلق رحالتنا على مثل هذه الأغنية قائلا : فى مثل هذا الفراغ الطويل ، فى الوقت وفى مدى البصر وفى الجو المحيط بنا ، يصبح لدينا متسع من الوقت لنتأمل تفاهة وركاكة الكلام الذى يغنيه مطربونا ،

أما السمة الثـــانية التى تتكشف عنها الرحلة فهى وما تقدمه لنا من معلومات . فالى جانب ما عرفنــاه من أرقام عن تكاليف رحلة السفينة وما يفترض أن تعود به من كمية الأسماك التى تصطادها وما يتوقع عن ذلك من أرباح ، فان رحالتنا يقدم لنا معلومات عن الشبكة التى تستخدمها السفينة ، وهى لا تشبه فى شىء شباك الصيد البدائية المعروفة التى يستخدمها صيادونا فى النيل أو بالقرب من شواطىء الاسكندرية ، ويكفى أن نعرف أن القبطـان يستخدم جهاز رادار يكشف له السمك فى قام المحيط تحت السفينة وهو فى طريقـه الى مصيره المحتوم داخل الشبكة . وان طولها يصـل الى خمسين مترا وطول فتحتها خمسة وعشرين مترا بعرض عشرة امتارا وانهـــا أشبه بالقرطاس .. الخ .. ثم يشرح طريقة الصيد وفرز السمك حتى وضعه فى الثلاجات والجراجات الثلجية وانواع السمك المختلفة التى يتم اصطيادها . وهنا نلمح لمسة انسانية ، ففى اللحظة التى كان يشهد فيها رحالتنـــا فرح المشتغلين على السفينة بكمية ما اصطادوه فكر فى الطرف الآخر : السمك لابد وأن يكون حزينا شديد الحزن والكدر . فقد انتهت حياته على هذه الصورة التى لم يكن يتوقعها وهو يمرح ويرتع فى وسط المحيط الهائل ، وكما لا تدرى نفس بأى أرض تموت فلا تدرى سمكة بأى أرض تؤكل .

سمة ثالثة من سمات هذه الرحلة هى قدرة كاتبهـــا على تقديم **شخصياته** لا سيما بأبعادها النفسية . فهـو يقدم لنا قبطان السفينة ، عبد السلام داوود وكيف يجمع بين الانسانية والحزم ، وكيف أن موهبة الصيد لديه تأتى بنتائج افضل مما تعلمه الخبراء الأجانب ، حتى أن

سفن الصيد الأجنبية تركت طريقتها العلمية المدروسة التى كانت تصطاد بها وراحت تصطاد بطريقة الشيخ داوود « الهمايونية » .

ثم يقدم لنا كبير المهندسين العجوز حنا يوسف مينا أو حنا يعلم الله ، نسبة الى لازمته التى يكررها : يعلم الله ، نشكر الله ، نحمد الله . ويشير الى ما يشوب شخصيته من شذوذ فى الجنس والطعام .

كما يقدم لنا شخصيات انخبراء الروس الأربعة على السفينة .

اما أهم شخصية صورها فهى شخصية عباس كبير الضباط ومحاولته فرض سلطانه بحق وبغير حق على كل فرد . وكذلك شخصية الباحث بهجت يارح حبشى وكيف يعتقد أن هناك جواسيس من حلف الاطلنطى يطاردونه ويريدونه أن يخطفوا منه جردل المعلومات الذى يجمع به عينات من مياه البحر ويحللها ، وأنه لهذا لا يريد أن ينزل الى البر بل ينتقل من سفينة الى أخرى .

وهو لا يصف هذه الشخصيات بل يقدمها من خلال تصرفاتها ومرافقها ، أى بطريقة درامية وليست تقريرية .

ولعل أهم هذه المواقف والتصرفات هو ما قدمه من بطولات بعض البحارة ، بطولة شخصيات تحب عملها وتتفانى فيه الى درجة تعريض حياتها للموت . من ذلك مجازفة اخصائى الصيد « جاد محمد جاد » بعمل ثغرة فى الشبكة يتسرب منها السمك حتى يخف وزنها ويمكن رفعها بدلا من أن تتمزق فى الأعماق وتفلت منها حمولتها الثمينة . ومجازفة « محمود الطير » حين انقطع أحد

السلكين اللذين يربطان الشبكة بالسفينة ، وكان لابد من محاولة ربط السلك الصلب المقطـــوع ، ودون انتظار لتعليمات القبطان قفز بحـار الصيد « محمود الطير » كبهلوانات السيرك على السلك الصلب الواحد المربوط به الشبكة وراح يحاول ربطها بالسلك الآخر المقطوع . بينما القبطان يصيح به مذعورا أن يرجع « والطـير » ولا هنا ، يمشى على السلك المشدود فوق سطح المحيط بين السفينة والشبكة كبهلوان محترف ، ولو اختل توازنه او انزلقت قدمه لوصل الى قاع الأطلنطى فى ثوان . ولأصبح فى غمضة عين غذاء شهيا لأسماك المحيط المفترسة .. لكن الطير نجح فعلا فى اعادة توصيل الشبكة بسلكها الصلب المقطوع .

وعندما احترق عنبر الماكينات بالسفينة ليـلا حتى اصبحت فى ظلام تام ، انطلق شبان السفينة من البحارة والضباط والمهندسين غير هيابين وهم يحملون المضخات الحمراء يطلقون سائلها حتى اطفأوا الحريق . لـكن لوحة توزيع الكهرباء الرئيسية التى تغذى كل مكان فى السفينة كانت قد احترقت ، واذا بمهندس الـكهرباء الصغير « ناجى نوار » (٢٢ سنة) يسـتطيع فى اربع ساعات ــ ومعاونة الجميع على ضوء البطاريات ــ أن يعيد الكهرباء على السفينة الصغيرة .

سمة رابعـة تتسم بها رحلتنا ــ بل رحـلات حسين قـدرى بوجه عام ــ هـو عنصر **الفـكاهة** الذى يخفف قليلا مما فيها من توتر يلازم بالضرورة اى عمل ينطوى على مغـــامرة . من ذلك حديثه عن التسول وسط المحيط ، فهناك شحاتون ظراف من نوع جديد مبتكر « بلانصات صيد صغيرة فى كل واحد منها ثلاثة او اربعة

أفراد فقط وكلب وشوية عيش فينو وبصل توضع على ظهر البلانص بطريقة ظاهرة بحيث يمكن للسفن القريبة أن تراها بوضوح ، من باب اظهار الفقر .. « والهى ما يغلب لكم جدع » فاذا اصطادت سفينة الصيد وسحبت شبكتها اقترب منها احد هذه البلانصات وراح الذين فوقه يشحتون بعض السمك وهم يعزفون على الجيتار وينشدون أن يبارك الله فى رزق سفينة الصيد ، ويحيون طاقم سفينة الصيد برفع قبعاتهم القش الأسبانية الكبيرة والتلويح بها مع الانحناء ، حتى تحن عليهم السفينة « بشوية » سمك ، وهذه « الشوية » يعنى نحو مئة أو مائتين كيلو جرام مثلا .

وعلى السفينة تتغير القيم فثمة أشياء تبوخ واشياء أخرى ترتفع قيمتها ، وقد رأينا كيف ان بعض أغانينا يصبح لا معنى لها وسخافة فى مثل هذه الظروف ، كما رأينا كيف أصبح الاستحمام أمرا يحلم به الراكبون على السفينة للتقتير الشديد فى كميات المياه المسموح بها . من ذلك أيضا أن الأفلام التى تعرض على السفينة رغم أنها محدودة العدد وقد حفظها البحارة لكثرة تكرار عرضها الا أنهم يقبلون على مشاهدتها لأنه ليس هناك وسيلة أخرى للتسلية . كذلك يخلق ركاب السفينة المناسبات للتسلية ، فما أن علموا مثلا بأن رحالتنا قد ارسل برقية يهنىء فيها ابنته بعيد ميلادها حتى أقاموا حفلا لهذه المناسبة . كذلك فانه لعدم وجود حلاقين على ظهر السفينة الا بحار كان صبى حلاق فى المحلة الكبرى ثم هجر مهنته وجاء ليعمل بحارا ، فان الزبون هو الذى يصبح تحت أمر الحلاق وليس العكس « لأنه محتكر الصنف والمتحكم فى رءوس العباد على ظهر السفينة » .

ولقد أفرد رحالتنا فصلاً عنوانه « حكاية النساء فى سفينة بلا نساء » وأوضح فيه أزمة الجنس عند العاملين على هذه السفينة ومشاكلهم العاطفية ، مشاكل المتزوجين منهم والذين يريدون الزواج ولا يستطيعون لظروفهم أو يؤجلونه ، وكيف تتضخم قيمة المرأة فى مثل هذه الصحراء العاطفية .

كما أفرد فصلا بعنوان « حفلات القلق » عندما أوشكت الرحلة على الانتهاء وأوشك موعد وصولها الى أرض الوطن ، فيترك رحالتنا العالم الخارجى الذى أتخمنا به ليتسلل بنا لحظة داخل نفوس هؤلاء القوم قائلا « وترتفع أصواتنا بضحكات نعلم جميعا أنها مجرد أصوات رنانة تخرج من حلوقنا فقط كأنما لتزيل وحشتنا ، ولكنها قطعا ليست صافية وليست من القلب .. والسؤال الذى يشغل ذهن وبال وتفكير كل واحد منا ونداريه عن أنفسنا قبل أن نداريه عن غيرنا ، بالصوت العالى والضحكة الجوفاء : مصر .. يا ترى كيف سنجد الأحوال فى مصر حين نعود » .

وهكذا نجد أن رحلتنا يتراوح أسلوبها بين الأسلوب الوصفى التقريرى والأسلوب التصويرى الدرامى . انها تتأرجح بين الأحداث وتقديم المعلومات ، بين الحركة والسكون أو الاستاتيكية والديناميكية ، فهو بعد أن يقدم وجبة دسمة من المعلومات الشيقة لجدتها ولغرابتها أحيانا ما يلبث أن يجعل رحلته تستأنف حركتها التى أوقفها حينا حتى يلتقط أنفاسه ويقدم ماتيسر من معلومات .

ونحن نجد أن الطابع الروائى يغلب على الجزء الاول من الرحلة بينما يبطىء الايقاع كلما أوغلنا فى الكتاب

حتى ندرك ان رحالتنا نضبت أحداثه ورجع الى مفكرته يلتقط منها معلومة من هنا ومعلومة من هناك ، حتى اذا أوشكت رحلته على النهاية دبت فيها الحيـــــساة مرة اخرى ، وعاد لعنصر الحدث حرارته .

وفى الجزء الذى تلكأ فيه الزمن وتلكأت فيه الأحداث كان لابد وأن يلجأ رحالتنا الى طريقة تشعرنا من حين لآخر بأن الزمن قد مر ، وكان ذلك عن طريق جملة يكررها من حين لآخر كأنها عقرب الساعة هى قوله « أكملنا اليوم الـ ١٠٠ طن الاولى من الصيد » .. « أكملنا اليوم المئه طن الثانية من الصيد » وهكذا نحس ان الزمن قد مر . ويصل الأسلوب التقريرى مداه عنـدما يعدد الأخطـاء ويقترح الحلول .

ولئن كان عالم الخـــارج هو الذى يشغل رحالتنا أساسا ، فان هذا لم يمنعه من أن يتسلل من حين لآخر الى العالم الداخلى له ولزملاء رحلته من حين لآخر .

وهكذا قدم لنا حسين قـدرى رحلة شـيقة ، مزج فيها بين المتعة والفائدة ، وزاوج فيها بين الفن والعلم ، وكشف لنا فيها ــ كما فعل سلفه السندباد ــ عن مناطق مجهولة وبطولات لا تعلن عن نفسها ولمسات انسانية فى هذه الصحراء العاطفية السابحة وسط محيط متلاطم .

فى المسرح

أوديب مصريا

من الشائع أن أوديب ولد فى الأساطير والملاحم الاغريقية ثم شب على أيدى أعظم شعراء الاغريق التراجيديين أيسخيلوس وسوفوكليس ويوربيدس ، ومنهم استوحى كثير من الأدباء – بل والعلماء – فى شتى لغات العالم هذه الشخصية المثيرة ليضيفوا اليها ويحذفوا منها بما يلائم أذواقهم وذوق عصرهم ، وان احتفظوا بجوهر مأساتها الذى حفظها من الضياع وضمن لها البقاء ما بقيت النفس البشرية بأهوائها المحرمة ونزعاتها المكبوتة ، لا تكاد تعلن عن نفسها الا فى مثل هذه الأعمال الفنية الخالدة لأنها تضرب بجذورها فى الطبقات الجيولوجية السحيقة للنفس البشرية .

ولعل أقدم اشارة لأسطورة أوديب ترد فى النشيد الحادي عشر فى ملحمة الأوديسة لهيرميروس والتى يرجح انها دونت فى أوائل القرن السابع قبل الميلاد . ومن المعروف ان هذه الملحمة تصف يوليسيس بعد سقوط طروادة التى اشترك فى حصارها وهو فى طريق عودته الى زوجته الجميلة بنيلوب وكيف ضل فى البحر اربعين عاما تعرض فيها لمجموعة من المغريات والعقبات لتحول

بينه وبين مواصلة رحلته ، وقد قام هذا الهائم على وجهه بزيارة هاديس (العالم الآخر) حيث التقى هناك بروح أمه فحدثها عن أم أوديب التعسة قائلا : ثم قابلت أم أوديب ابيكاستي الجميلة ، انها فى جهلها ارتكبت اثم الزواج بابنها . فقد قتل أوديب أباه أولا ثم اتخذ أمه زوجة له ، لكن سرعان ما أظهرت الآلهة الحقيقية ، أما أوديب فقد أعدوا له عقابا قاسيا ، تركوه يعانى عذاب الندم وهو ملك على الكديين فى ثيبا التى أحبها ، أما أبيكاستى فقد أذهلها الجزع من فعلتها ، فشنقت نفسها بحبل طويل فى عارضة فى أعلى السقف ، وهكذا هبطت الى قاعات « هاديس » حارس البوابات الجبارة ، تاركة اوديب يعانى آلام اللعنات التى تستطيع أم أن تستنزلها عليه .

غير ان ايمانويل فليكوفسكى يتساءل فى كتابه « أوديب واخناتون » عما اذا كان الأصل الأسطورة جذور تمتد فى وقائع التاريخ أم لا (ايمـــانويل فليكوفسكى ، أوديب واخناتون ، ترجمة فاروق فريد ، دار الـكاتب المصرى ، د . ت . ص ١٣) .

وقد انتهى فليكوفسكى الى أن قصة أوديب مع أم الهول فى طيبة اليونانية ليست الا قصة الفرعون المصرى اخناتون وان طيبة ليست الا طيبة مصر وأم الهول ليست الا أبو الهول مصر . فأوديب اذن مصرى المولد وان كان قد أصبح اغريقى النشأة .

ويعلن فليكوفسـكى فى بداية دراسته ان كثـيرا من الأساطير ما هى الا ابتكارات تنطبق على نماذج أولية ، ويشتمل هـذا النموذج الأولى على ظروف تنطبق على ظروف مولد أوديب . فتكون ظروف الحمل فيه غير

عادية ، وعند مولده يبدأ شتى المحاولات للقضاء عليه ، وعادة ما يبذلها ابوه أو جده لامه أو الحاكم الاعلى للمملكة . ولكن تنجح خطة تهريبه ويقوم بتربيته أبوان آخران في بلدة بعيده ولا نسمع شيئا عن طفولته ، ولكن ما ان يبلغ الرجولة حتى يعود أو يذهب الى حيث مملكته مستقبلا ، وبعد أن يحرز انتصارا على ملك أو عملاق أو الاثنين معا يتزوج أميرة عادة ما تكون ابنة من سلفوه على العرش ، ثم يصبح ملكا يستمر حكمه لفترة طويلة بلا كوارث ويشرع القوانين ، ولكن بعد هذا يفقد صلته الطيبة بالآلهة أو برعاياه أو بالاثنين معا ، فيستبعد عن العرش ويبعد عن المدينة ، ثم يموت بعد ذلك موتا عظيما ، وعادة فوق قمة تل . اما ابناؤه ان وجدوا فلا يخلفونه على العرش ولا يدفن جسده ، ومع هذا تقام له مقبرة مقدسة أو أكثر (المرجع السابق ص ١٩ ، ٢٠) .

ثم يجعل فليكوفسكي أبا الهول أول الخيط ، فيعلن ان هذا المخلوق الذى يحرس طيبة فى اقليم بيوتياليس من المخلوقات غير المألوفة لليونان ، فأرض هذا المخلوق الأصلية مصر ، وأبو الهول له وجه انسان وجسد حيوان . ولئن أطلق على أبى الهول الجيزة أثناء حكم الأسرة الثامنة عشرة حورس حامى المدفن ، فقد كانت حاتحور هى التشخيص الأنثوى لحورس واسمها معناه « بنت حورس » ، ويرى عالم المصريات ادوارد نافى ان أم الهول ما هى الا صورة الآلهة حاتحور وهى متأهبة للقتال . بينما يعتقد آخرون لها أن أبا الهول الأنثوى قد ظهر بصورة مفاجئة فى أثناء حكم امنحوتب الثالث وزوجته الملكة تى بالتقريب وهما من الأسرة الثامنة عشرة .

ويصف الأستاذ أ . دسين تحول شكل أبى الهول فى أيام امنحوتب الثالث وزوجته تى . ففى الأزمنة السالفة كان العاهل الحاكم يصور فى هيئة أبى الهول بين الحين والحين . غير انه لم يكن امنحوتب الثالث هو الذى يصور فى هيئة أبى الهول بل عادة ما كانت زوجته «تى» . لقد نحتت الملكة حتشبسوت تماثيل لنفسها هى فى هيئة أبى الهول له لحية نتدلى من ذقنه تمشيا مع العادة القديمة فى تصوير أبى الهول ، وله وجه رجل ، ولكن أبا الهول الملكة « تى » قد نحت له وجه امرأة ، بل والأغرب من ذلك ثديا المرأة لجسم الأسد فى أبى الهول « لها » أجنحة وهى تمزق ضحيتها أو تخنقها .

ويستنتج من ذلك فليكوفسكى ان أم الهول طيبة التى فى اقليم يوتيا ، وهى الفتاة القاسية ذات الأجنحة لم تكن فحسب ضيفا وفد من أرض النيل ، بل كانت بمعنى ادق صورة ظهرت فى طيبة المصرية لأول مرة فى أثناء حكم الملكة « تى » (المرجع السابق ص ٣٦ ، ٣٧) .

ثم يستطرد قائلا ان شعب الاغريق لم يكن هو الشعب الذى نشأت بينه أسطورة أوديب ، بل مثلما حدث لأوديب الذى يبلغ مرحلة الرجولة فى بلد غريب فى قصر يوليبوس ظانا نفسه ابنا لهذا الملك وهو فى الحقيقة لم يكن قد حدث بالضبط لأسطورة أوديب ذاتها ، فقد اتخذت شكلا أدبيا فى أرض الاغريق واعتبر بطلها اغريقيا ، ولكن يبدو أنه لا الأسطورة ولا البطل كانا اغريقيين فى الأصل (المرجع السابق ٤٥) .

ومثلما عاش أوديب بعيدا عن أبويه فان اخناتون

امضى طفولته وصباه بعيدا عن مصر ، فلم يحدث أن ذكر اسمه قط فى نقوش امنحوتب الثالث الكثيرة على عكس ما كنا نتوقعه باعتباره الأمير الوريث للعرش ، ولم يحدث ان رسم هو وابوه معا فى الرسوم المنحوتة . كذلك فانه بعد موت امنحوتب الثالث تقلدت أرملته الملكة « تى » مركزها كرئيسة للدولة لبضعة شهور أو أسابيع ثم ظهر ابنها فجأة على مسرح الأحداث وتسلم مقاليد الحكم حتى ساد الاعتقاد بأنه اغتصب العرش ، وتؤكد لنا الخطابات التى تلقاها اخناتون عقب توليه عرش أبيه من الأمراء الموالين انهم يشيرون الى علاقات صداقة لا يعرفها حق المعرفة الا أمه الملكة « تى » (المرجع السابق ص ٥٤) ويستنتج فليكوفسكى الى أن لقب اخناتون الدائم « ذلك الذى تخلف ليعيش طويلا » دليل على أنه كان مهددا بالموت وهو فى المهد ، ولابد ان ذلك كان نتيجة لنبوءة قد توضح لنا عداءه فيما بعد لكهنة آمون ولآمون نفسه ، كما قد تكون الدافع الرئيسى لما قام به من اصلاح دينى فى المستقبل . ولازالته اسم الاله آمون أينما وجده بما فى ذلك من ظهوره مقترنا باسم أبيه امنحوتب . ويتضح من ذلك انه كان ناقما على هذا الاله ومنتقما منه، اذ كانت نبوءته سببا فى ابعاده عن القصر الملكى ، كما كان ناقما على أبيه ومنتقما منه ، اذ نفذ أمر النبوءة وابعده من القصر . والمعروف انه عند ازالة اسم شخص متوف يكون مصير روحه « كا » الزوال أيضا وهى فى العالم الآخر . ومن ثم كان ما فعله اخناتون يعادل جريمة القتل فى اعتبار المصريين القدماء ، بل ويعادل ما هو أشنع واقسى ، فالرجل القتيل قد يسترد حياته وهو فى « حدائق النعيم » أما ان يقتل وهو بهذه الحدائق نتيجة لاجراء حدث على الأرض فلن يصبح له وجود على

الاطلاق (المرجع السابق ص ٦٦) وعندما ماتت « تى » لم يدفنها اخناتون بجوار زوجها اذ امتدت منافسته لابيه حول امتلاكه أمه الى ما بعد الممات (المرجع السابق ٦٤).

ثم ينتقل فليكوفسكى الى دليل ثالث يؤكد به علاقة الاسطورة الاغريقية بالتاريخ الفرعونى فيقول ان أوديب فى الأسطورة اليونانية معناه « ذو القدم المتورمة » وتصور الرسوم على جدران المدافن فى مدينة أخت آمون (تل العمارنة) وهى المدينة التى اتخذها اخناتون عاصمة لملكه ، وعلى الشواهد المقامة عند حدود المدينة ـ تصور الملك بطريقة لم يسبق لها مثيل ـ. فرأسه مستطيل ورقبته نحيفة وبطنه قد تدلى الى أسفل ، ولكن أكثر التشوهات وضوحا هو الشكل الذى اتخذته فخذاه ، فهما متورمتان ومنتفختان . ومن المعروف ان لغات كثيرة تفتقر الى التفرقة بين القدم والساق ، فالكلمة فى اليونانية القديمة تعنى كلتيهما .

ثم يقارن بين شخصية « آى » أخى الملكة « تى » وشخصية كريون أخى جوكاستا وهو من تمتع بنفوذ قوى فى الفترة بعد موت لايوس ووصول أوديب ، وهو الذى وهب أخته الملكة لاوديب ، ثم كان هو من أجبر أوديب على التخلى عن العرش ، وهو من حكم البلاد فى أثناء تربع الشاب أبيتوكليس على العرش كما كان هو من أصبح ملكا بعد الموت السابق لأوانه للملك ، ويقول فليكوفسكى ان « أى » قام بنفس الدور أيام اخناتون بالاضافة الى انه كان والد زوجته نفرتيتى .

ويحاول فليكوفسكى أن يعثر على عراف مصرى فى مقابل تيريسياس الذى تنبأ بمستقبل أوديب ، فيجده فى شخص امنحوتب بن جايو ، وان كانت الفاظ الشك

والاحتمال والترجيح تستخدم هنا وفيما بعد بصورة أكثر مما كانت تستخدم من قبل مما يجعلنا نحس أننا لم نعد نقف على أرض صلبة من الحقائق .

وكما تنازل الملك بوليتكيس واتيوكليس ابنا أوديب بعد اعتزال العرش ، كذلك تنازع سمنقرع وتوت عنخ آمون الملك بعد ان اعتزل اخناتون العرش ، وكان مصير سمنقرع اشبه بمصير الأخ المغلوب بوليتكيس .

ثم يستنتج من قراءة كثير من الآثار العلاقة المحرمة بين اخناتون وأمه « تى » ويفسر ذلك بتأثرهما بأخلاقيات الميتاتيين الذين كانوا يبيحون مثل هذه العلاقات والذين يرجع نسب « تى » اليهم . وان مصير « تى » كان — مثل مصير جوكاستا — وهو الانتحار . ونورد هنا فقرة من أسلوب الاحتمال والشك المستخدم فى الكتاب والذى يقضى — بدون تبرير — الى نتائج مؤكدة ، يقول فليكوفسكى عن مصير « تى » :

والمصريون القدماء الذين كانت فكرة حياة ما بعد الممات بالنسبة لهم ذات أهمية كبيرة ، «لابد» انهم بالذات قد حرموا تكريم المنتحر فى جنازته ، ومن ثم «ربما» أدى ذلك الى عدم اغداق تكريم مناسب يليق بملكة مثل «تى» هذا! «أن» كانت نهايتها مماثلة لنهايةجوكاستا الاسطورية، ان الأم التى شنقت نفسها قد حرمت روحها نعمة حياة ما بعد الممات برغم انها ملكة وحاملة التاج ذى الريشتين، ويجب عدم بناء مدفن يكتظ بالثروات . . و « يحتمل » أن هذا هو سر نهاية الملكة « تى » ، فهى لم تمنح مدفنا ملكيا ولا حتى مدفنا آخر شبيها بما نقبنا عنه من مقابر نبلاء طيبة أو تل العمارنة ، بل وأخفيت جثتها بعيدا عن الأنظار . «فان كانت» قد انتزعت حياتها بيدها فهى بذلك

قد ارتكبت خطيئة لا تغتفر فى اعتبار المصريين قومها (المرجع السابق ص ١٧٩ ــ ١٨٠) .

وبدلا من أن يكون التاريخ أصلا للأسطورة فان فليكوفسكى يقلب الوضع فيجعل الأسطورة أصلا للتاريخ بحيث يقول بالنص : « وهكذا قد تشرح الأسطورة التى تحكى قصة جوكاستا وقائع دفن « تى ـ الغريبة » . (ص ١٨٠) .

حتى التفاصيل الصغيرة فان فليكوفسكى يحاول ان يعثر على تشابه بين التاريخ والأسطورة ، مثال ذلك انه قد عثر فى مقبرة توت عنخ آمون على صندوق صغير به خصلة من شعر كستنائى ، وهناك ملحوظة تعرفنا ان هذه الخصلة خصلة الملكة « تى » .. ويوربيدس يجعل جوكاستا تقص شعرها « اننى أقص خصلات شعرى الفضية وأتركها تسقط مع الدمع الغزير لأظهر حزنى ومرارتى » (المرجع السابق ص ١٨٢) . والدوران اللذان قامت بهما انتيجونى فى الأسطورة الاغريقية وهى مصاحبة أبيها المنفى الأعمى ومواراة جثة أخيها القتيل التى حرم أخوها الثانى دفنها ، وزعهما فليكوفسكى على اثنتين من بنات اخناتون .

ومن الممكن ادراك الأصل المصرى الذى نبعت منه مجموعة أساطير طيبة اليونانية من حقيقة واحدة ، وهى ان مشكلة دفن الجثة تحتل المكانة الأولى فى فكرة المسرحية ، اذ ان موضوع مسرحية أوديب فى كولونا وكذلك مسرحية « انتيجونى » و « سبعة ضد طيبة » هو المشكلة التى تثار حول دفن الجثث ، كما كان اهم ما يشغل بال أوديب وهو ملك أن يدفن فى أرض طيبة بعد مماته ، بيد انه لايعود الى طيبة بعد نفيه .

وفى رواية سوفوكليس عن الاسطورة يصر أوديب على أن تتوارى مقبرته عن الأعين ، ويظل مكانها سرا لا يعرفه انسان سوى ملك أرض أتيكا ، ولم يكن مثل هذا التصرف غريبا على أرض مصر حيث كان الملوك يعملون على اخفاء مقابرهم .

ان هذا الانشغال الدائم بالدفن والاهتمام البالغ بالمثوى الأخير لهو ظاهرة مصرية الطابع وليست يونانية .

كما ان كهف انتيجونى (المقبرة) الذى حفر فى الصخرة ليس يونانيا أيضا ، اذ كان اليونان يحرقون جثث موتاهم أو يدفنونها فى الأرض ، ولكن يندر تماما ان ينحتوا مقابرهم فى الصخر ، ومع هذا فالمصريون سواء فى طيبة أو تل العمارنة كانوا ينحتون قبورهم فى الصخر . ومن ثم فان مقبرة فى كهف صخرى تعد امرا غريبا على ارض اليونان (المرجع السابق ص ١٨٩ ، ١٩٩).

هذا ملخص سريع لذلك البحث المقارن وان كان ما من احد أبدا يمكنه معرفة هذه الحقائق على وجه يقينى ، وكلها اجتهادات تقوم على أساس ان معظم الأساطير استمد أصله من التاريخ ، وقد أشرنا الى كثرة استخدام الفاظ الترجيح وان كان يخلص منها الى نتائج يوحى للقارىء انها مؤكدة .

***

ولئن كانت هذه النظرية موضع احتمال وشك ، فانه ما من شك فى ان مصر قد استردت اوديب فى العصر الحديث ، حين بدأ الأديب العربى نهضته واستفاد من خبرات آداب أخرى فى مقدمتها الأدب الأوروبى وما تضمن من اشكال أدبية لم يكن الأدب العربى يمارسها الا بشكل بدائى جدا وفى مقدمتها فن المسرح . والأدب العربى

الحديث لم يستفد من تجربة الأدب الأوروبى شكلا فحسب ، بل شكلا ومضمونا ، فقد حاول كتاب المسرح المصرى الحديث أن يعالجوا بدورهم بعض الموضوعات التى عالجها كتاب المسرح الأوروبى ، لكن من وجهة نظرهم ، فكما ان قصة اخناتون ـ على النحو الذى استخلصه لنا فليكوفسكى من قراءته الآثار الفرعونية ، لم تنقل بنصها الى الأساطير الاغريقية ، بل امتزجت بالروح الاغريقية وفى مقدمتها فكرة القدر التى تسيطر على الأسطورة وتهبها الطابع الاغريقى ، فان قصة أوديب بدورها قد عادت الى الظهور فى مصر وفى القرن العشرين ـ بعد حوالى أكثر من ثلاثة آلاف عام ـ لتصطبغ بالطابع الاسلامى . ذلك ان أوديب منذ نما فى المسرح الاغريقى لم يتوقف عن رحلته وتجواله فى الزمن متنقلا من أديب الى أديب ، مطورا شخصيته بما يتفق وذوق العصر والمجتمع الذى يطل منه .

والأربعة الذين عالجوا أوديب فى المسرح المصرى هم توفيق الحكيم (١٩٠٢) وعلى أحمد باكثير (١٩١٠–١٩٦٩) وعلى سالم (١٩٣٦) وفوزى فهمى أحمد . وقد نشر توفيق الحكيم مسرحيته « الملك أوديب » عام ١٩٤٩ بينما نشر على أحمد باكثير مسرحيته « مأساة أوديب » بعد ذلك بقليل ، أما مسرحية على سالم « انت اللى قتلت الوحش » فمثلت ونشرت بعد ذلك بأكثر من عشرين عاما (عام ١٩٧٠) بينما مسرحية فوزى فهمى « عودة الغائب » فقد كتب فى مقدمتها انها ألفت عام ١٩٦٨ ولكنها لم تمثل الا عام ١٩٧٧ ، فهما من جيل تال لكل من جيل توفيق الحكيم وباكثير .

أما توفيق الحكيم فكان قد قام من قبل بمحاولات

لعرض التراجيديا الاغريقية مدثرة فى غلالة من العقلية العربية بهـــــدف احداث اتزان بين العقليتين والأدبين وذلك عندما نشر مسرحية أهل الـكهف عام ١٩٣٦ . والتراجيديا بمعناها الاغريقى هى الصراع بين الانسان وقوى خفية فوق الانسان ، ويرى توفيق الحكيم ان التراجيديا بهذا المعنى تنبع عن شعور دينى ، لان أساسها هو احساس الانسان انه ليس وحده فى الكون (توفيق الحكيم ، الملك أوديب ، مكتبة الآداب ، القـاهرة ، ص ٣٣) . اما فى القرن السابع عشر ، فان التراجيديا اصبحت صراعا بين الانسان ونفسه ، وهكذا بدأ الشعور الدينى فى الانطفاء .

ويعلن توفيق الحكيم انه اختار أوديب لأنه تأملها فأبصر فيها شيئا لم يخطر على بال سوفوكليس ، ابصر فيها صراعا ليس فقط بين الانسان والقدر كمـا رأى الاغريق ومن جاء بعدهم بل أبصر فيها صراعا بين الواقع والحقيقة ، الواقع الرغد الذى كان يعيش فيه أوديب بعد أن أصبح ملك طيبة وزوجا لملـكتها جـوكاستا ، والحقيقة التى وقفت حائلا أمام هذا الواقع حتى هدمته ، وهى أنه كان قد قتل والده دون أن يدرى منذ سبعة عشر عاما . وان جوكاستا التى هى فى الواقع زوجته هى فى الحقيقة « أمه » . فالواقع ابن الحاضر والحقيقة بنت الماضى ، وقد انتصرت الحقيقة على الواقع فانتحرت جوكاستا وفقأ أوديب عينيه .

ولقد تعلم توفيق الحكيم دروسا ممن سبقوه الى معالجة أوديب من ابرزهم أندريه جيد الذى جعل من ايمانه بالانسان مادة خشوع فى النفس فحل ذلك مكان الخشوع للقوى الخفية العليا وهو بذلك يلخص لنا عقيدة الأوروبى

اليوم فى ايمانه بألا شىء فى الكون غير الانسان . اما توفيق الحكيم فقد أبرز ما فى قصد أوديب من تحد للاله أو القوى الخفية وهو ما فى قصة أوديب – كما أبرز عواقب هذا التطاول .

ويقول الحكيم ان شعوره بأن « الشرقى » يعيش دائما فى عالمين ، هو الحصن الأخير الذى بقى لنا لنعتصم فيه ضد التفكير الغربى الذى يعيش فى عالم واحد هو عالم الانسان وحده .

ثم يعلن توفيق الحكيم انه اضطر ان يخرج على قاعدة الوحدة فى الزمان والمكان التى تخضع لها التراجيديا الاغريقية لأنه رأى ان جو الأسرة فى حياة أوديب أمر لا ينبغى اغفاله ، وجو الأسرة عند أوديب لا يمكن أن يكون خارج البيت ، بينما حوادث التراجيديا الاغريقية دائما فى ميدان عام أو فى الهواء الطلق .

كما يعلن انه اضطر أيضا ان يجرد القصة من بعض المعتقدات الخرافية التى تأباها العقلية العربية الاسلامية ، فجعل تريزياس هو مدبر الأحداث فى بدايتها وليس وحيا الهيا كما تقول مأساة سوفوكليس . فهو الذى لفق قصة أبى الهول عندما قتل لايوس وعمد الى الفتى الساذج صارع الوحوش فأجلسه على عرش طيبة ، فكان كل ذنب أوديب انه قبل الدور الذى أجبره العراف على لعبه . وهكذا فان أوديب الذى هرب من كورنث لأنه لم يطق الحياة فى أكذوبة ، اذا به يعيش فى طيبة فى أكذوبة أضخم ، وهكذا أصبح انسانا مثل سائر الناس ولن يصبح عظيما الا بمسلكه ونوع موقفه أمام الكارثة . وبذلك لئن جرد توفيق الحكيم أوديب من عظمته الأسطورية – وهى هزيمته لأبى الهول – فقد اضفى

عليه عظمة أخرى صادرة عن فضيلته البشرية متأثرا فى ذلك بروح الدين الاسلامى الذى يفاخر بأن نبيه العظيم بشر .

وفى الوقت نفسه فان توفيق الحكيم جعل تريزياس هو المجرم الحقيقى لأنه حاول أن يتطاول على الاله فيكون هو : وليس الاله ، منبع الأحداث ومصدر الانقلابات ، ولا يلبث ان تتضح عواقب هذا التطاول وعقابه ، فقد باءت قصة تريزياس بالفشل ، لأن الرجل الذى جلس على عرش طيبة لم يكن الا الطفل الذى أراد اقصاءه منذ عشرين عاما .

وهكذا لئن جرد توفيق الحكيم المأساة من خرافتها ، فقد احتفظ فيها بذلك الصراع بين الانسان والقوى العليا . كما احتفظ بفكرة الانعكاس التى هى حركة هذه المسرحية ، أى أن يتحقق فى النهاية ما حاول البطل الا يقع فيه فى البداية . وان كان قد نقل ثقل الصراع مع القوى العليا وفكرة الانعكاس من أوديب الملك الى تريزياس العراف .

واخيرا يوضح توفيق الحكيم ان الطعن الذى انزله بعينيه لم يكن امعانا فى الكبرياء كما ذهب جيد ، ولا رغبته فى أن يبلغ أوج الشقاء كما بلغ أوج المجد كما ذهب كوكتو ، فهذه كلها — فى رأيه — من قبيل التفسيرات الأدبية والذهنية . لكنه — تمشيا مع بشرية أوديب — يرى انه كان شديد التعلق بأسرته ، عميق الحب لجوكاستا ، وكانت فجيعته فيها وهو يراها على هذه الميتة البشعة اشد مما يحتمل ، وفى لحظة جنونه اقتلع عينيه ، فهو قد فعل بنفسه ما فعل من أجلها وحدها .

اما على أحمد باكثير فكان أكثر امعانا فى تجريد المسرحية مما يعتبره خرافة ، اذ جعل الكاهن الأكبر لوكياس يختلق نبوءاته ثم يعمل على تحقيقها بتدبيره ومكره الى أن تتحقق من بدايتها الى نهايتها . ودافعه الى هذا أحط من دافع تريزياس عند توفيق الحكيم . فقد عال باكثير تصرفات الكاهن الأكبر فى بدايتها الى أن بوليبب ملك كورنث كان ينافس لايوس على زعامة هيلاس ، ويخشى أن يكون لخصمه ولد يرث عرشه وليس له هو وريث ، فرشا الكاهن الأكبر بعشرين ألف ألف اوبول ليفترى وحيا باطلا حتى يحمل لايوس على التخلص من ولده فلا يبقى له وريث . أما الاله الحكيم فحاشى أن يوحى بمثل هذا الاثم (على أحمد باكثير ، مأساة أوديب ، لجنة النشر للجامعيين ، القاهرة ، ص ٢٣) .

وتستمر أحداث قصة أوديب كما نعرفها ولكن ليست تحقيقا لنبوءة وحى الهى بل نتيجة لمؤامرة لوكياس كبير الكهنة .

ومعنى هذا ان باكثير يحول الصراع من صراع بين الانسان وقوى أعلى منه ، الى صراع بين الانسان والانسان فيفقدها الصراع بالمعنى الدينى . ولهذا فانه عندما يتساءل أوديب ساخرا لماذا لم يعلن الوحى أن هناك رجسا فى المدينة من قبل وقد مضى على هذا الزواج الآثم سبعة عشر عاما ، أفكان راضيا عن عمله ثم غضب اليوم ؟ اذن فماذا أثار اليوم غضبه ؟ (المرجع السابق ص ٩٣) ندرك أن باكثير يريد أن يقول انه لو كان هناك وحى الهى حقيقى لأعلن سخطه من أول يوم تم فيه الزواج الآثم . أما أن يقع بعد سبعة عشر عاما وبعد أن انجب أوديب من أمه ابنين وبنتين فتفسيره ان الأمر كله من تدبير انسان يفترى على الاله .

وفى موقع آخر يقدم باكثير تفسيرا انسانيا وذلك على لسان أوديب حين يعلن للشعب ان الرجس كان موجودا من قبل . فليس اذن هو سبب ما هم فيه من عذاب ، انما السبب ان أموال الأمة تتكدس فى أيدى الكهنة يحتجزونها من دون الشعب الذى يموت جوعا . ولن تزول المجاعة — وهى ليست طاعونا عند باكثير — الا بمصادرة أموال المعبد وتوزيعها بالعدل ، ومن الطبيعى ان تختلف اذن نهاية أوديب باكثير عن نهاية أوديب سوفوكليس ، فهو لا يفقأ عينيه انما يغادر مدينة طيبة وهو أقرب الى الجنون .

وتتردد فى مسرحية باكثير كثير من التعبيرات الاسلامية أكثر مما تتردد فى مسرحية توفيق الحكيم ، حتى ليخيل الينا ان تريزياس ليس عرافا بل فقيها اسلاميا . كما يرفض باكثير بوضوح فكرة الانسان المسير ويعلن أكثر من مرة على لسان فقيهه تريزياس ان الاله بحكمته خلق الخير والشر ، ومنحنا عقلا نميز به بينهما ، ومعنى هذا ان الانسان هو الذى يصنع قدره وليس العكس .

وهكذا غير باكثير تماما من المفاهيم الأساسية التى تقوم عليها مسرحية سوفوكليس بعد أن أقصى دور القوى العليا عنها . ومما يجدر التنويه به ان املى باكثير مسرحية اخرى بعنوان اخناتون ونفرتيتى ، ولكنه فعل ما فعله سيجموند فرويد الذى تحدث عن كل من أوديب واخناتون ولكن لم يدر بخلده أحدهما أن لأيهما أية علاقة بالآخر على نحو ما فعل ايمانويل فليكوفسكى .

ولقد القى على باكثير ضوءا على طريقة معالجته لمسرحية أوديب فى محاضراته فى فن المسرحية من خلال تجاربه الشخصية التى ألقاها عام ١٩٥٨ على طلبة معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ونشرت فيما بعد ،

فقال ان المسرحية قد حافظت على شخوص الأسطورة وحوادثها كما هى فى الأصل الا فى بعض التفصيلات الثانوية التى لا تخرج عن اطارها العام ، وان وضعت لكل حادث من حوادثها تفسيرا يختلف فى مدلوله الاصلى ، (على أحمد باكثير،محاضرات فى فن المسرحية من خلال تجاربه الشخصيه ، جامعة الدول العربية معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٨٩) .

ونحن لا نوافق باكثير على انه لم يغير الا فى بعض التفصيلات الثانوية التى لا تخرج عن اطارها العام ، لأنه — كما قلنا — غير من المفاهيم الاساسية التى تقوم عليها مسرحية سوفوكليس وأهمها رفضه دور القوى العليا .

غير ان باكثير استطرد قائلا اننا اذا تأملنا مسرحيته وجدنا لها دلالة تعكس واقعنا العربى — وعلى وجه الخصوص الفترة بين حرب فلسطين (١٩٤٨) والثورة المصرية (١٩٥٢) — بدقائقه وتفاصيله « لقد خضنا حرب فلسطين بجيوشنا الستة أو السبعة فماذا كانت النتيجة ؟ » خسرنا الحرب حيث كسبتها اسرائيل فأضيفت الى رقعتها أراض واسعة ، فهل كان ذلك طبيعيا اقتضاه ضعف العرب وقوة اسرائيل أم كانت المسألة كلها مدبرة من قبل — ومتى بدأ هذا التدبير ؟ ألم يبدأ منذ اعلن بلفور وعده المشئوم باقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين ؟ فانظروا الآن الى قصة المسرحية ألا ترون فيها مشابه من هذا الذى حدث ؟ لقد أعلن لوكياس نبوءته الكاذبة قبل مولد أوديب ثم وجه الأحداث نحو تحقيق هذه النبوءة حتى تحققت . وكان أوديب هو الذى سعى بنفسه الى خوض غمار التجربة ، متحديا تلك النبوءة حتى وقع فى صميم المأساة طبقا لخطة مرسومة لا يدرى هو عنها

شيئا ، تماما كما سعى العرب الى خوض غمار الحرب ضد اسرائيل ، متحدين بزعمهم كل القوى التى تناصر اسرائيل حتى وقعوا فى صميم المأساة طبقا لخطة مرسومة لا يدرون عنها شيئا .

وفى حرب فلسطين هدنتان الأولى والثانية أفلا تجدون فى قصة المسرحية مشابها لهما فى ذهاب أوديب الى طيبة مرتين : فى الأولى ليقتل أباه والثانية ليتزوج أمه : (المرجع السابق ص ٨٦ ؛ ٨٧) .

ثم يشبه الطاعون الذى انتشر فى طيبة والذى كان سببه استيلاء المعبد على الأراضى الزراعية حتى لم يبق للشعب فيها الا القليل بالاقطاع الذى كان متحكما فى مصر وغيرها من البلاد العربية والذى كان مسئولا عن كثير من المآسى بلغت قمتها فى حريق القاهرة .

ومصادرة أملاك المعبد وما تلاها من توزيع الأراضى على شعب طيبة يذكرنا بما قامت به الثورة المصرية من المصادرة والتوزيع .

ومن الذى قام بذلك فى الأول ؟ أليس أوديب الذى تجرع قصة المأساة وعانى ذلها وخزيها ؟ .

ومن الذين قاموا بذلك فى الثانية ؟ أليسوا هم الذين اكتووا بحرب فلسطين وعانوا ذل المأساة ؟ .

ومتى جاء الانقاذ فى الحالتين ؟ الم يجىء حين اشتد الكرب وعظم الخطب ؟ .

وهكذا تستطيعون أن تمضوا فى استنباط وجوه الشبه بين هذه المأساة كما صورتها المسرحية ، وبين واقعنا العربى ، لا على أساس الرمز الجزئى الذى يخص كل

شخص أو كل حادث في أحدها بشخص أو حادث في الآخر ، ولكن على طريقة الرمز الكلى الشائع فى المسرحية كلها ... فقد يرمز الشخص أو الحادث الى أكثر من شخص أو حادث .

ويختم على باكثير القاء الضوء على ما فى مسرحيته « مأساة اوديب » من رمز بقوله :

ان الرمز هنا يتذبذب فيمس وترا هنا ويمس وترا هناك كالسيمفونية التى يثير توقيعها فى نفسك مختلف المشاعر والاحاسيس دون أن تستطيع على التحديد أن تقول : هذه النغمة تثير كذا وكذا من المشاعر ، وهذه النغمة تثير كذا وكذا من الاحاسيس (المرجع السابق ص ٨٨ ، ٨٩) .

أما معالجة على سالم التى قدمت على مسرح الحكيم بالقاهرة عام ١٩٧٠ ثم نشرتها دار الهلال بعد ذلك . فانها فى حدود علمى المعالجة الوحيدة فى العالم التى يعلن مؤلفها على غلافها انها كوميدية وليست مأساة . ولعل هذا هو السر فى انها باللغة العامية المصرية فى معظمها وليست بالفصحى ، لا لأنها كوميديا فقط ـ واللهجة العامية انجح فى الاضحاك لأنها أكثر مباشرة وتلغى المسافة بين الممثل والمتفرج ـ بل لأن مؤلفها حاول أن يلغى البعدين الزمانى والمكانى أيضا . وكانت اللغة العامية احدى وسائله فى هذا الالغاء .

وفى مقدمة على سالم لمسرحيته « أوديب » أو « انت اللى قتلت الوحش » يشير الى بحث ايمانويل فليكوفسكى الذى عرضنا اليه فى أول هذه الدراسة وردد القول بأن سوفوكليس وان لم يغادر أرض اليونان فقد كان صديقا للمؤرخ اليونانى هيرودت الذى زار مصر كثيرا وكان يسمح

له بمشاهدة طقوس معينة محرم على الشعب أن يراها . ويقول انه ربما لم تكن مسرحية أوديب سوفوكليس سوى اعداد اغريقى لمسرحية مصرية تقدم نفس الاحداث ويتولى اخراجها كهنة آمون فى معابدهم ، ولعلهم كانوا يعرضونها على كبار الشخصيات من زوار مصر كنوع من الاعلام الموجه لتشويه سورة الملك اخناتون بعد أن انتصروا عليه وعلى مبادئه وأعادوا عبادة آمون مرة أخرى .

ويمضى على سالم فى تدعيم رأيه فيشير الى مسرحية جان كوكتو « الآلة الجهنمية » فيرى أن الجو الفرعونى فرض نفسه عليه بحيث لم يستطع التخلص منه فصور ابا الهول على انه فتاة جميلة يرقد على حجرها أنوبيس اله الموتى فى مصر . واندريه جيد فى مسرحيته أوديب يجعل بولينيس ابن أوديب يغازل أخته أنتيجون ويعرض عليها الحب ؛ وعشق الأخت والزواج منها عادة ملكية فرعونية قديمة . ولهذا كله عاد على سالم بأحداث مسرحيته اوديب الى طيبة مصر القديمة وليس طيبة اليونان ، كما أعطى نفسه الحق فى أن يجردها من كل المفاهيم اليونانية القديمة والتى تتضمن اساسا الانسان وعلاقته بالأقدار والآلهة . هذا هو الاستبعاد الأول ، الاستبعاد المكانى .

أما الاستبعاد الزمانى فيتمثل أولا فى تصوير استخدام أهل طيبة الاختراعات الحديثة كالاذاعة والتليفزيون والتليفون ، ويتمثل الاستبعاد الزمانى الثانى فى شكل المسرحية وطريقة اخراجها ، فقد أستخدم المؤلف فى الفصل الثانى التقدم التكنيكى الذى حققته التجارب المسرحية المعاصرة فى بث حركة سريعة نابضة فى أرجاء المسرحية يتطلبها دائما المسرح الفكرى لدفع الاملال . كما تم الغاء المسافة الزمانية ثالثا ــ وبطريقة اكثر وضوحا ــ فى

الفكرة التى تقوم عليها المسرحية . فالمأساة لم تعد مأساة اوديب ، بل مأساة طيبة وشعبها فهى تستأجر من يحل لها اللغز وتكافئه على هذا بأن تجعله ملكا عليها ، ولكن اذا حدث وتصدى فرد نعمل بطولى مثل انقاذ أمة ، وأفلح فى هذا ، فاننا لا نلبث ان نتبين حقيقة ما فعل . ان الانقاذ وهم زائف ، هو فى الحقيقة تأجيل مؤقت للهزيمة . لهذا فان تريزياس يسخر من أسطورة أوديب القديمة قائلا : هل قرأتم ان ملكا تربع على العرش لمجرد انه حل أحجية، افرضوا ان أوديب غير موجـود وسـطكم ، فماذا كنتم تفعلون ؟ .

أنقذ أوديب طيبة من الوحش ، أو هكذا قيـل على لسان خبراء الدعاية فى المـدينة وصدق النـاس النبأ وانصرفوا الى أعمالهم اليومية وانقطع أوديب لاختراعاته ومكتشفاته ليبنى أمته على أساس المنجزات المـادية وحدها ، بينما ترك حاشيته تخرب نفسيات الشعب ، بدعوى العمل على أن يلتف الشعب حول مليكهم . وهنـا كمت المأساة ، فلا فائدة من الاختراعات والاكتشافات ما لم يصحبها بناء الانسان ، والكارثة ان ما يحدث هو هدم الانسان . لذلك يعود الوحش من جديد الى الظهور. وحين يطالب الناس أوديب بملاقاته من جديد يجيبهم بأنه سيلبى طلبهم ويحل اللغز ويقتل الوحش ، ولكن حين يموت ماذا هم فاعلون . لذلك يذهب شعب طيبة لملاقاة الوحش فيلاقى الهزيمة . وحين يتساءل أوديب عن سبب الهـــزيمة مع انه طـور طيبة آلاف السنين واخترع للناس كل ما يصنعه الانسان فى المستقبل ، يرد عليه تريزياس قائلا : واخترعت ايضا يا مولاى أسوأ اختراع فى التاريخ . « الخوف » الاختراع الوحيد الذى يفسد كل الاختراعات الأخرى . ويعلن ان اللغز الحقيقى هو

ان يحرر الانسان من الخوف والتملق والشك من أجل كل الطاقات الابداعية بداخله . ومن يحل هذا اللغز هو الذى يستحق ببساطة لقب الحاكم .

وهكذا غير على سالم الأسطورة تماما . فاحالها الى كوميديا وان كانت روح المأساة تتغلغل فى أحداثهـا وأصبحت وقائع المأساة القديمة مجرد أصداء باهتة تنبعث من ماض قديم . مجرد أداة يطوعها المؤلف المسرحى ليعكس قلقه وقلق عصره ومجتمعه ويقدم خلالها رؤيته وكلمته .

ونأتى أخيرا الى صياغة فوزى فهمى فى مسرحيته « عودة الغائب » ، فنجد انه ظل محتفظا بروح المأساة ولهذا فانه كتبها بالعربية بل بأسلوب أقرب الى روح الشعر من حيث التقديم والتأخير والسجع المتناثر خلال الحوار . أما الصراع فليس صراعا بين الانسان والقدر ، ولا بين الحقيقة والواقع ... الخ لكنه صراع اجتماعى فى جوهره . الشعب أحد طرفيه وأوديب يتزعم هذا الطرف لأنه يحقق أحلام الشعب ويدافع عن حقوقه . « هو فى تاريخ طيبة ليس له مثيل ، ملك يدفع بعيدا عنه المنافع الشخصية وينتزع الثروات من الأرض لا لنفسه بل لكل الناس ، أمر لم تعتده طيبة ... » (فوزى فهمى أحمد ، عودة الغائب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مسرحيات مختارة ، ١٩٧٧ ، ص ٢٨) .

أما الطرف الآخر فهم أعداء الشعب وعلى راسهم كريون أخو الملكة والعراف تريزياس ، ويعبر كريون عن موقف هذا الطرف حين يعلن قائلا : ان ما أسوقه هو حصاد تجربة عشتها ، فأنا من بيت حكم ، ألفت التعامل مع هذه الجماهير ... انهم لا يثقون بنا .. انهم يعلمون

اننا فوقهم .. نحن غيرهم .. وهم دائما أعداء لمن يحكم .
(المرجع السابق ص ٣١) .

وهؤلاء كانوا يريدون من أوديب أن يملك ولا يحكم ، لا يهمهم أن تحبهم الجماهير بل ان تطيعهم . وكانوا يعتقدون ان قتل لايوس تم نتيجة تدبيرهم ، لكن النتيجة جاءت على غير ما دبروا ، فبدلا من أن يخلوا لهم الجو ويحققوا مطامعهم ، حل أوديب اللغز فأصبح من حقه أن يحل محل الملك المقتول ويتزوج زوجته .

ولئن كان أوديب فى الفصل الأول « التعرف » يتعرف على حقيقة ما ارتكبه بما لا يختلف كثيرا عما فى مسرحية سوفوكل ، فان فى الفصل الثانى « القرار » نجده يتخذ قرارا مخالفا تماما لما اتخذه أوديب سوفوكل ، لأنه لا يفعل ما فعله سلفه حين فقأ عينيه وتخلى عن عرش طيبة ، فمعنى هذا انه تخلى عن شعب طيبة وتركه نهبا لمستغليه . ثم لماذا يفعل بنفسه هذا ولم يخطىء لا هو ولا أمه لأنهما ليسا أشرارا ، وسيثبتان لأنفسهما وان بعدهما بأنهما حقا أبرياء وأنهما محيا الضلال من حياتهما لحظة تبيناه . ثم أنهما ليسا مسئولين عما جرى لهما .

وهكذا قرر أوديب ألا يدع العمر يضيع فى باطل وان يغرق رأسه بما اراده لهـــا : صنع مستقبل الناس الطيبين أهل طيبة (المرجع السابق ص ٥٦) . وبذلك فان أوديب « فوزى فهمى » يدين أوديب « سوفوكل » بانه أضاع عمره فى باطل وانه تحمل مسئوليةلاذنب له فيها .

ونتيجة لهذه المقدمة اتخذ أوديب قراره : انه لن

يعلن حقيقة قصته ، لأن اعلانها معناه ان يحطم المتلصصون جرحه ويعرفوا جرحه ليعودوا بطيبة الى الوراء ، الى ما قبل اليقظة من الرقاد حيث الأشباح تعود ، ويفرخ السر ويباح ، وتعامل كرامة الناس بالنعال (المرجع السابق ص ٥٨) .

وعندما تؤكد امه جوكاستا بان جريمتهما لا يمكن ان تغفر يقاطعها بالا جريمة هنـــاك . من اجل ذلك قررا أن يظلا زوجين أمام النـــاس ولـكنهما امام نفسيهما سيكونان أما وابنا (المرجع السابق ص ٦٠) .

ويحاول كريون المندفع التآمر على اوديب فيحرق رجاله الحقول ويحطمون السدود ولكن مؤامرته تفشل . فيشير عليه تريزياس الخبيث ان يشترى مجلس الشيوخ ليقف أعضاؤه ضد مشاريع اوديب فيعزلونه عمن حوله ويجعلونه وحيدا .

اما جوكاستا فانها تشفق على ابنها وتغرى وصيفتها اوريجانيا بان تكون زوجته مدعية ان سرنما خبيثا يحول بينهـا وبين أوديب بأمر من الاطباء . وقـد اتضح ان اوريجانيا تحب أوديب لأنها تحب فيه وطنهـا فى ثوبه الجديد .

وعندما يشي كريون لاخته جوكاستا بالعـــلاقة غير الشرعية بين اوديب وأوريجانيا يفلت منها لسانها معلنة ان أوديب ابن دمها . وحين ينتشر الطاعون يجدها كريون وتريزياس فرصة ذهبية لهما . فتريزياس ما يزال يعمل بكهانته ، فيطالب أوديب ان يرحل لانه قاتل ابيه ومعاشر أمه فأسراره ليست بمنأى عن سكان الأوليمب ، لكنأوديب يتصدى له معلنا أن ظل سكان الأوليمب على الأرض رغيف وسلام بينما تريزياس يخضب بالموت أرض طيبة ، ويطالبه

بأن يمرغ اطماعه فى الوحل والا يجعل موت البشر سلاحه مستثمرا زمن الضيق ، ويتحسر أوديب على ضيعة الآمال فى عالم الأحقاد (المرجع السابق ص ١١٦) . ويشيع تريزياس فى طيبة ان سبب الدمار وجود من ارتكب معصية فى طيبة ويجب التخلص منه ، فيرد أوديب ردا منطقيا : فالعقاب فى الشرائع لمن ارتكب الخطأ ولا يمكن للآلهة أن تساوم ولا ترضى ان يدفع شعب دمه المسفوك عقابا لمن ارتكب الخطأ . بل العقاب يحتمله مرتكب الخطأ والا فالآلهة اذن آلهة ظالمة .

لكن أوديب يضطر فى النهاية الى ان يعلن أن حجب الحقيقة عن الشعب هو خطيئته ، ولكن الكورس يبرىء أوديب معلنا انه ليس هناك لعنة بل هناك مؤامرة ، وان هذه المؤامرة تستتر فى ظل المعبد . ولكن الكورس يعود فيعاتب أوديب معلنا : كتمت عنا جرحك ونحن شعبك ، صار صمتك وحشا آخر يترصـــد بنا ، أوديب أنت بسقطتك وصمتك لست لنا (المرجع السابق ص ١٣٤) .

حينئذ يستجيب أوديب لرغبة شـــعبه معلنا ان الديمقراطية لن تنحنى أمام ســلطته . فلتصنع طيبة مصيرها ولتمارس حريتها ولتعلم ان أمامها الطريق غير مفروش بالورود ... « أيهـــا الطيبون انا لا أخالف اجماعكم ، أنتم ترفضوننى وهذا حقكم ، كى لا تبقى حريتكم وهما وشعارا مرفوعا .. لكن الانتصار الحقيقى لكم هو أن تستمروا بهذا القدر من الشجاعة فى ممارسة حريتكم أمام مواقف أخرى مماثلة ... وداعا وأنا اترككم أحرارا من ذلك الخوف » . ثم يصرح بمعارضته لسلفه أوديب سوفوكل : أما أنا فقد كان على أن أفقأ عينى كما تحكى قصتى ، لكن هأنذا أصد بكل ارادتى عن نفسى فقء

العينين فانا أحلم بالحصب لا بالعقم ، المرجع السابق ص ١٣٦) . فاذا كان أوديب على سالم قد علم الناس الخوف فان أوديب فوزى فهمى قد حررهم منه .

ويبدو ان فوزى فهمى يسقط على أسطورة أوديب موضوعا معاصرا . وان كان فى الواقع موضوعا جديدا قديما لانه يتصل بأساليب الحكم فى كل عصر وفى كل مكان . ونحن نلاحظ انه احتفظ من ناحيـة الموضوع بجانب من الأسطورة القديمة وتخلى عن جانب آخر أبرزه الصراع مع القدر الذى حل محله الصراع الاجتماعى . اما من ناحية الشكل فكان أكثر احتفاظا بالشكل الاغريقى للمسرحية اذ احتفظ بالكورس وبروح الشعر وبالشخصيات الرئيسية وبزمانها ومكانها ولكنه قسمها الى ثلاثة فصول .

وهكذا استرد ادباء مصر ــ ومن مختلف الأجيال ــ أوديبهم بعد أن تغرب طويلا ؛ ووجدوا فى شخصيته طواعية لأن يؤقلموه مع عقائدهم حينا ومع همومهم حينا آخر ؛ فارتدت ثيابنا وتحدثت بلغتنا ، ولا غرابة فأوديب شخصية خصبة تلاقت مع مواهب خصبة .

فن الكتابة المسرحية

اخذت تتكون منذ منتصف هذا القرن مكتبة عربيه عن الفن المسرحى ، سواء عن طريق التأليف او الترجمة .

وقد قام المرحوم الأستاذ دريني خشبة بأكبر عبء فى ترجمة الكتب الخاصة بهذا الفن ، فترجم كتابا فى الفن المسرحى لادوارد كريج ، وعلم المسرحية لالاردس نيكول ، واعداد الممثل لستانسلافسكى ونشرت هذه الترجمات فى مشروع الألف كتاب بوزارة التربية والتعليم . كما انه قام بترجمة كتاب حياتى فى الفن لستانسلافسكى ونشرته دار الشرق ، وترجم أيضا كتاب فن كتابة المسرحية تأليف لاجوس أجرى ونشرته مؤسسة فرانكلين .

والواقع أن هذا الكتاب لا يقتصر على شرح اصول مادة بناء المسرحية وطريقة كتابتها وما ينبغى أن يتوافر فيها من القواعد والاصول بل هو — كما يقول مؤلفه — يعرض العمليات الداخلية التى يقوم بها الذهن الانسانى فى صراعه المحتوم سواء أكان ذلك فى الاقصوصة أم القصة الطويلة أم القصة الاذاعية أم القصة السينمائية أم فى المسرحية . ولهذا فهو كتاب فى فن الكتابة وليس فى فن الكتابة المسرحية فقط .

يقول المؤلف : نحن نعلم ان هناك قوانين للاكل ،

والمشي والتنفس والتصوير الموسيقى والرقص والطيران وبناء الجسور والقناطر ، كما نعلم أن ثمة أصولا وقواعد لكل مظهر من مظاهر الحياة وكل مظهر من مظاهر الطبيعة . فليت شعرى لماذا تكون الكتابة هي الشيء الوحيد الذي يشذ على هذا كله فلا تكون لها قوانينها . لا شك أن القول باستحالة وجود قوانين لكتابة المسرحية أمر غير مقبول ولا معقول .

وقسم المؤلف موضوعه الى أربعة أبواب هي :

١ ــ الفكرة الأساسية للقطعة الأدبية ويسميها المؤلف المقدمة المنطقية .

٢ ــ الشخصية المسرحية .

٣ ــ الصراع .

٤ ــ عموميات وتشمل موضوعات أقل اهمية من السابقة .

الفكرة الاساسية للقطعة الأدبية

ويحسن أن تكون واضحة ، كما يجب أن تشتمل على عناصر الصراع اللازمة وعوامل الحركة النابضة ، فالفكرة الأساسية فى « روميو وجولييت » مثلا أن الحب العظيم يتحدى كل شيء يقف فى سبيله ولو كان الموت نفسه ، وفي الملك لير : الثقة العمياء تؤدى بصاحبها الى الدمار . وعطيل : الغيرة تقضى على نفسها وعلى موضوع حبها . والأشباح : الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون . ثم يورد المؤلف عددا من الأفكار التى تصلح أساسا لقصة أو مسرحية على شرط أن يقتنع بها المؤلف . فلن يمكن أن تدب الحياة فى الفكرة الأساسية الا حينما يدافع

الكاتب عن هـذا الجانب أو ذاك من المشكلة الرئيسية فلابد ان يكون لديه شيء يريد أن يقوله .

والفكرة السيئة المهوشة لا تنتج الا مسرحية سيئة أو مهوشة ، كما يوصى المؤلف الا يتخذ المؤلف المسرحى فكرتين أساسيتين والا تعرض للفشل وأربك المسرح والممثلين والمتفرجين جميعا .

وليس هناك فكرة أساسية واحدة يمكن ان تكون بالضرورة حقيقة عالمية شاملة . فالفقر لا يؤدى دائما الى الجريمة . لكنك اذا اخترت هذه الفكرة فهو يؤدى الى الجريمة فى هذه الحالة .

ولا يجب أن تبرز الفكرة الاساسيه بحيث تجعل شخصيات العمل الأدبى مجرد دمى ، والعوامل المتصارعة مجرد أدوات آلية ، بل يجب أن تكون الفكرة منطوية فى أحشاء البذرة الأصلية . كما يجب أن نعلم انه لا المقدمة المنطقية ولا أى جزء آخر من المسرحية يصح أن تكون له حياته المستقلة المنبعثة من ذاته دون سائر الأجزاء الأخرى ، بل يجب أن تمتزج سائر الأجزاء لتبدو كلا منسجما فى توازن تام .

الشخصية :

كل شيء فى الوجود له ثلاثة أبعاد هى الطول والعرض والارتفاع ، وللشخصية أيضا ثلاثة أبعاد هى كيانها الجسمانى وكيانها الاجتماعي وكيانها النفسي ، وبدون معرفة هذه الأبعاد الثلاثة لا نستطيع أن نقدر الكائن البشرى حق قدره .

وليس يكفى أن ندرس شخصا ما فنعرف هل هو فظ خشن أو مؤدب دمث أو ورع متدين أو ملحد بل يجب

أن نعرف لماذا هو كذلك ؟ ولماذا تتغير أخلاقه ؟ بل لماذا يجب ان تتغير اخلاقه ؟ .

أما ناحية الكيان الجسمانى فلا شك أن الشخص القبيح ينظر الى الدنيا نظرة تختلف عن الشخص الجميل أو الأعرج أو الأعمى او الأصم او الطويل او القصير ... والمريض يقدر الصحة كما لا يقدرها السليم . ولهذا كان كياننا الجسمانى أشد أبعادنا الثلاثة جلاء وهو يؤثر على تطورنا الذهنى ويصلح أساسا لمركبات النقص والاستعلاء فينا .

وكياننا الاجتماعى هو بعدنا الثانى ، فشخصية الفقير غير شخصية الغنى ، واختلاف البيئة والأصدقاء من اسس اختلاف الشخصية .

اما كياننا النفسى فهو ثمرة بعدينا الآخرين ، وأثرهما المشترك هو الذى يحيى فينا مطامعنا ويسبب هزائمنا وخيبة آمالنا ويكون مركبات النقص فينا ومن هنا كان كياننا النفسى متمما لكياننا الجسمانى والاجتماعى .

ثم يذكر المؤلف بالتفصيل عناصر كل بعد من هذه الأبعاد الثلاثة ، فعناصر الكيان الجسمانى مثلا : الجنس (أنثى أو ذكر) ، السن ، الطول والوزن ، لون الشعر والعينين والجلد ، الهيئة ، المظهر ..

ومن الواجب أن تعرف الشخصية التى تتناولها معرفة دقيقة تفصيلية لكى تعلم كيف يتصرف صاحبها فى موقف معين مرسوم ، وأى شىء من الأشياء الى تحدث فى مسرحيتك يجب أن تنبثق مباشرة من الشخصيات التى وقع عليها الاختيار لاقامة الدليل على الفكرة الأساسية للرواية ، ويجب أن تكون هذه الشخصيات

من القوة بما يكفي لاقامة الحجة على صــــدق مقدمتك بطريقة طبيعية معقولة يقبلها المتفرجون لا بطريقة تحكمية تريد أن تفرضها على غيرك فرضا .

ويوصي المؤلف الكتاب ان يهتموا بوجوب استمرار تنمية شخصياتهم المسرحية وعدم وقوفها عند نقطة بعينها لا تنمو بعدها أبدا . والنماء هو رد الفعل الذى تظهره الشخصية للنضال الذى يكتنفها . والشخصية يمكن أن تنمو بقيامها بالخطوة الصحيحة او بالخطوة الخاطئة على السواء . الا أنها يجب أن تنمو اذا أردنا لها أن تكون شخصية روائية صحيحة . وكل مسرحية جيدة تخوض من قطب الى قطب أي من احد طرفيها الى الطرف الآخر .

ولابد فى كل مسرحية من وجود شخصية محورية تكون هي البطل الاول أي الشخص الذى يتولى القيادة فى اية حركة أو قضية . ونماء الشخصية المحورية لا يمكن أن يكون شاملا كنمو الشخصيات الروائية الأخرى ، فلا نستطيع مثلا ان ننتقل من الكراهية الى الحب أو العكس ، ولهذا يكون تطور الشخصية المحورية فى نطاق انسيق من نطاق تطور خصومها . وسبب ذلك ان الشخصية المحورية قد وصلت الى قرار حاسم قبل أن تبدأ القصة . ثم أنه الشخص الذى يجبر الآخرين على النماء والتطور . ففى كل رواية لا يرتفع الستار الا حينما يكون صاحب الشخصية المحورية قد وصل الى نقطة تحول فى حياته . ومن المقطوع به أن تبدأ قصتك — أو مسرحيتك — من وسطها وليس من مبدئها بأى حال من الأحوال .

وأى انسان يعارض هذا البطل هو خصمه . وبدون هاتين الشخصيتين لا يمكن أن توجد مسرحية لأنه لا يمكن

ان يوجد فيها ما يدفع قصة المسرحية :لى الأمام او ما يثير فيها الصراع .

وقوة الارادة فى الشخصية من أهم العوامل التى تكون مبعثا الصراع فيها ، اما الشخصية الضعيفة الارادة فهى شخصية شديدة الخطر على المسرحية .

ومن أهم اعمال الكاتب المسرحى أن ينسق شخصياته، اى أن يحسن توزيع الأدوار على تلك الشخصيات ، بحيث لا يجعل شخصيات المسرحية من نمط واحد والا فشلت المسرحية .

الصراع :

الصراع فى كل مسرحية هو روحها ، وهو ينبع من الشخصية ، وهو أربعة أنواع : الصراع الساكن ، والصراع الواثب ، والصراع الصاعد الذى لا يكف عن الحركة المتدرجة ، والصراع الذى يدلك من طرف خفى على ما ينتظر حدوثه .

أما الصراع الساكن فسببه وجود شخصيات لا تستطيع الحسم فى الأمور ، ولسنا نستطيع ان ننتظر صراعا من رجل لا يريد شيئا ولا يعرف ماذا يريد . اما الصراع الواثب فيحدث فجأة وفى قفزات كما فى الميلودراما حيث الافتعال والسطحية والعواطف الثائرة التى تثور لاتفه الأسباب . اما احسن أنواع الصراع فهو الصراع الصاعد ويليه الذى لا يكف عن الحركة المتدرجة . واذا تساوى الخصوم فى المسرحية قوة كان الصراع شائقا لأنه ناشب بين أكفاء متساوين أما اذا كان بين ضعيف وقوى فقدنا استمتاعنا بالمسرحية ، كما لو كانت الملاكمة بين قوى وضعيف .

ويؤكد المؤلف فى أكثر من موضع أن المسرحية ليست

محاكاة للحياة او صورة منها ، لكنها جوهرها ولبابها ، فيجب أن نركز كل ما هو هام فيها ونكثفه . كما ان الانتقال فى المسرحية يختلف عن الانتقال فى الحياة الواقعية ، فقد يحدث الانتقال فى وقت قصير جدا دون ان يفطن الى ذلك صاحب الشخصية ؛ وعلى المؤلف أن يرينا أنه موجود فى ذهن هذه الشخصية .

عموميات :

ولابد للمسرحية فى مجموعها أن تتصاعد باستمرار حتى تصل الى قمة تكون أوج الرواية كلها ، ويكون المشهد الذى يتم فيه ذلك أكثر توترا من اى مشهد سواه ، على الا يضر ذلك بأى مشهد سابق .

كذلك يصحح المؤلف الفكرة الخاطئة التى تزعم أن من واجبات الكاتب المسرحى أن يقوم بعرض موضوع الرواية والكشف عن شخصياتها فى مستهل الرواية والواقع أن العرض نفسه جزء من الرواية فى مجموعها وليس مجرد أداة .

أما الحوار فيجب أن يكشف لنا عن الشخصية ، وكل كلام يجب أن يكون ثمرة لمقومات المتكلم الثلاثة ، أى أبعاد شخصيته الثلاثة : الجسمانية والاجتماعية والنفسية ، فتعرف عنه من هو ، ويوحى الينا بما عسى أن يصير اليه فى المستقبل .

والحوار ينمو من الشخصية ومن الصراع ، كما انه يحمل الفعل أى يقوم بأداء الموضوع وشرحه . ولابد من الاقتصاد فى استعمال الكلمات ، فالفن ميدان انتخابى وليس مجال النقل الفوتوغرافى ، وكثرة الكلام تطمس الفكرة . كما ان الشخصيات يجب أن تتكلم بلغة البيئة

التى تعيش فيها . ولا تسمح لبطلك الأول بأن يلقى خطبة مثلا والا اقشعر الجمهور وفرج عن نفسه بالضحك عليك . والنكات من أجل النكات فقط تتلف استمرار الموضوع وتمزق أوصاله . واذا ذكرت أشياء عديدة كان عليك أن تدخر أهمها لتذكرها بعد الأشياء الأقل أهمية . ويجب أن يكون الأسلوب واللهجة متفقين مع شخصيات الرواية . والحوار هو الواسطة التى تحمل مسرحيتك الى الى الأسماع ، لكنه ليس هو المقصود بالذات .

ان الحوار الجيد هو ثمرة لشخصية أحسن اختيارها وسمح لها بالنماء نماء منطقيـــا الى أن يكون الصراع الصاعد قد أقام الدليل على صحة المقدمة .

ويتحدث المؤلف عن دخول الشخصيات وخروجها فى المسرح فيقول أنهمـــا جزء من اطار الرواية كالأبواب والنوافذ للمنزل ، ويجب أن يساعدا على تطور الصراع ، وأن يكونا جزءا من الشخصية أثناء قيامها بالكشف عن ذاتها .

هذا عرض سريع مختصر جـدا لهـذا الكتاب القيم موضوعا ومنهجا ، ولم يكن دور الأستاذ درينى خشبة مجرد دور المترجم بل أنه قام بدور الأستاذ الذى يناقش ويعلق ، وقد سجل فى نهاية الكتاب ثبتا بالمصطلحات التى قام بترجمتها ليستفيد بها غيره .

فهـــرســت

شكوى الموظف الفصيح :

صفحة

شكوى الموظف الفصيح ٧
مرثيـــــــة ١٣
دعـــــاء ٢٩
ايضـــــاح ٣١

حبر على ورق :

حبر عـــلى ورق ٤٢

من الآداب العالمية :

من الادب السودانى : تاجوج ٥٨
من الادب الفرنسى : ثمن الحرية أو مونسيرا ٦٨
من الادب الرومانى : الساعة الخامسة والعشرون ٧٩
من الادب الابطالى : الحب الزوجى ١٠١

من ادب الرحلات :

مذكرات شاب مصرى بغسل الاطباق فى لندن ... ... ١٢٠!
راكبـان على السفينة ١٢٥

من المسرح :

أوديب مصـــــريا ١٤٥
فن السـكتابة المسرحيـة ١٧٠

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٢٤٨١ / ٨٠

الترقيم الدولى ٧ ـ ٦٣ ـ ٧٠٣١ 1SBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة — ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشـــم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :
M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

هـــذا الكتاب

زيد بن عبيد موظف توفي اخيرا بعد احالته على المعاش بقليل ٠ وقد عثر في احـــد ادراج مكتبه على تسعين شـــكوى ـ وكان سلفه الفلاح الفصيح قد رفع منذ اكثر من خمسة الاف عام تسع شكاوى فقط كانت كافية للنظر في موضوع شكواه وانصافه ـ اما موظفنا الفصيح فانه لم يكترث بارسال ما تعب في كتابته ، ربما لاعتقاده ، ان ارسالها او عدم ارسالها يتساويان ٠ وهي شكاوى مرســله الى جهات مختلفة واشخاص متباينين ، منهم الاحياء ومنهم الاموات ومنهم من لم يولـد بعد ٠٠٠ منهم ناظر مدرسة ابتدائية ومدير مكتب بريد ورؤساء وزارات ورؤساء دول عربية واجنبية ٠

وكتابنا هذا يتضمن نماذج من هذه الشكاوى الطـــريفه تعقبها ثلاث جولات : جولة في الادب العالمي ، واخرى في ادب الرحلة عندنا ، وثالثة في عالم المسرح ، لنجد انفسنا في نهاية رحلة ثقـــافية ممتعة يقدمها لنا مؤلف استفاد بفنه القصصي في تقديم مادته الجذابة ، وبفنه النقدي في اضفاء لمسة ساخرة على هذه المادة ٠